# غياب

ابراهيم حامد

غياب
ابراهيم حامد
تدقيق لغوي : عبدالله أبو الوفا
تصميم الغلاف : عبير محمد
:رقم ايداع
ترقيم دولي:

دار فصلة للنشر والتوزيع
العزيزيه - منيا القمح - مصر
٠١٠٦٧٠٠٠٧٠١
fasla,pub@gmail,com
FB ,Com/Fasla ,Pub

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظه

الطبعه الأولي أكتوبر ٢٠١٧

جميع حقوق النشر محفوظه لدار فصلة للنشر و التوزيع
إن أي تصوير أو اعادة طباعه أو نشر بشكل ورقي أو الكتروني أو ترجمته أو تسجيله صوتيا بدون إذن كتابي مسبق من الدار يعرض صاحبه للمسائله القانونيه

# غياب

## ابراهيم حامد

فصلة
للنشر و التوزيع
Fasla Publishing & Distribution

# إهداء

إلى الذين نضجوا من الألم وأصبحوا كبارًا.

- للكبار فقط -

# -أخطر أمراض القلب ذاكرة قوية-

نزار قباني

# يدٌ

-أودُ الاعترافَ لكَ بالحبِ وبأنَّه ثمة
يدٍ تودُ أنْ تخرجَ من قلبَي تُعَانقك-

- كنتُ أكبر من الحرب في تلك الليلة.
- بل كنتِ أنتِ الحرب.
٢٤ آذار/مارس ٢٠٠٣

عندما تساوت الأرض بالشمس وسقطت معلنة ليلة أخرى من الظلام المكفهر، واستلحت الغيوم وجه السماء، ولكأنها تتلو وردًا في نصف حركة تبعثر من خلالها ضوء القمر في وسع السماء، وانطلقت الأضواء الفضفاضة من بلورات الإضاءة لتكشف ما تستر من الظلام والأرصفة، كانت الحركة في هذا الحي شِبه متوقفة، أهانها السكون والجمود، وتسلط عليها وحش العزلة، وانفرطت فيها حبات الزمن حتى ذبلت ملامحه، كاد الخوف يغزو نهى أحشاء من يمر خلال هذا الحي، وتتسلل إليه برودة الفزع حتى تتكتل الصرخات الصامتة غصة في حلقه، انتهت حدود الظلام في نصف الشارع، الذي تقوّست في أرضيته، إضاءة شِبه كاملة نفذت من خلال عمود متهالك وفذت فيه الحصيات متآمرة على مستوى المكان.

بدت البناية شبه المتهالكة في آخر الشارع رمزًا عن الحياة التي لا تزال تقاوم بعد الغارة الأخيرة التي استهدفت الحي، من حولها ركام يفضح تفاصيل لا تغيب، تهاونا عما جرى في البارحة، وتلة حديثة التكوين فوقها قميص ممزق مدفون نصفه أسفل باب لم يستوعب ما حدث ليلة أمس، الشارع يبدو وكأنه ينام على يد باردة، قد ساهمت الطائرات في تطويح قبضاتها القاتلة واحدة تلو الأخرى خالقة خرابًا كئيبًا. لا ينفك سكان الحي عن التشعب وسط هتافات تندد بالعدوان، الذي يستعرض قواه على أبرياء يتدافعون في مشهد هوسي، وسط سخط كبير من الغارات التي مسخت

المدينة بأكملها، البعض يقيم حداده بصمت أمام سور لا يزال معلق عليه جملة مكتوبة على قماشة مغبرة -نحن أهلها ولا غيرنا يحميها-، معظم مباني الحي بلا إضاءة تحسبًا أن ينتبه العدوان للأماكن المضيئة فيسهل قذفها.

تركت الطائرات موتًا مفتوحًا استرجاعًا لغارة أخرى قد تحدث في أي وقت، على مسافة أقل من عشرين متر من البناية انتهى الأخوان أيمن وأحمد من حديثهما حول مغالاة الأزمة التي تعنف البلاد، يفكران بشكل جدي بالرحيل من المنطقة، بعدما بثته شاشات الأخبار قبل ساعات وهي تحث كافة سكان المنطقة بالتحرك إلى الشمال بالقرب من -تكريت والحقلانية-، في الأثناء قطع حديثهما صدى الطائرات ركض وقتها أحمد صوب العمود القريب من البناية وفي قبضته حجر ألقى به إلى أعلى محاولًا إصابة بؤرة الضوء، ووصل أيمن وقتها مهرولًا حيث البناية ليكبس على مفتاح الكهرباء حتى يقطعه قبل أن يصل شبح الموت ويلقي بصغار عزرائيل في الحي مرة أخرى وربما أخيرة.

هلعت صِبا الابنة الصغرى لأيمن حينما رأت سواد الغرفة قد تقدم بحلته المفزعة، تقدمت وقتها ببراءة وأسنانها تصطك رعبًا نحو ردهة البيت، تابعت السير إلى أن فتحت إحدى أدراج المكتب المنزوي في أقصى الغرفة المقابلة للردهة، أخرجت من أحشاءه شمعة وأشعلتها بالقداحة المجاورة للشمع، ومن ثمّ صعدت أعلى الدرج متحسسة وهي تنادي ببراءتها: -أبي، أبي، أين أنت؟-، أخذت تصيح بقوة صوتها دون أن يجيبها أحد، خطر ببالها أن يكون على سطح البناية، وضعت يدها اليسرى أمام وجه اللهب وهي تصعد حتى وصلت إلى السطح خائبة المنال، تكومت بشمعتها على أحد الجدران تبكي،

زاد فزعها حين ملأ صوت الطائرة المكان، ألقت الشمعة جانبًا ووضعت كلتا يديها على أذنيها بقوة، وهي تحاول أن تكبح صوت الموت، لم تشعر بنفسها إلا وهي في أحضان أبيها وهو يضمها نحو صدره وحلقه يتلجلج:

- -لا تخافي يا صبا أنا هنا يا صغيرتي-.

أطفأ بسبابته وإبهامه الشمعة، وحمل الطفلة على كتفه متوجهًا أسفل الدرج، لم تهدأ صِبا إلا في أحضان أبيها، تشبثت فيه كأنما عاد بعد اغتراب، وصلا إلى الشقة، رفعت وقتذاك رأسها إلى أبيها وقد غمرت عبراتها قسمات وجهها، أخبرته بحنوٍ ويدها لا تزال تعانقه:

- -أبي، لم أكن أحمل الشمعة لأرى الطريق، بل لأراك أنت-.

تلقى أيمن الجملة بثقلٍ، ضمّ الصغيرة أكثر نحو صدره وقد تجاوزت دموعه مرمى عينيه، نظر وقتها لأحمد بعدما أخلت صِبا مساحة صدره ليخبره:

- -يجب أن نغادر بغداد في أقرب وقت، لا يمكنني احتمال أن أخسر ابنتي الوحيدة هنا-.

- -سندبر هذا الأمر يا أخي، لكن لا أحبذ أن نغادر هذا المكان الآن، في الحرب المكان الأشد خرابًا هو الأكثر أمنًا-.

تحسس أيمن الدموع فجلب أسفل قميصه ليمسحها من فوق أنفه المعقوف، ثم استطرد بحسرة:

- -أنا لا أبحث عن الأمان الآن، أين الأمان في سماء تمطر الموت، سنغادر في الصباح-.

*****

يوم أمس كان قد أخبر زوجته أن الأيام لا تبشر بالبقاء في مكان واحد، تُمسك بيده وتخبره -لا أحد يهرب من مصيره-، كان على عتبة الباب حين

نظر إليها وهي تناوله ابتسامة راضية، وبعدما هبط على درج البناية نادت وقتها صبا:

- -أبي أريد الخروج معك-.

ارتفع نفير السيارة التي يجلس فيها أحمد وهو ينبهه أنهما تأخرا، وبعدما نزلت إليه حافية مازحها كعادته وهو يقول: -أستطيع أن أأخذك منكوشة الشعر لكن حافية لا يا صبا، صعدت صبا في عجلٍ وارتدت حذائها الصيفي ولقنت أمها قبلة على خدها وراحت مع أبيها للعمل.

كان قد استأجر محل مأكولات على بُعد ساعتين من محل إقامته في منطقة تابعة لمحافظة الأنبار تدعى -الفلوجة-، تأزم حاله في الفترة الأخيرة، وتأثر عمله جراء الأحداث التي تطول البلاد، وفور وصوله للمطعم وجد قوات الجيش العراقي قد هدمت جزء كبير منه لدواعٍ عسكرية، خُطط من خلالها أخذ جانب كبير من الشارع لبناء ملحق للسراديب التي تربط الفلوجة بالخالدية في خطة سرية للأمن الشعبي لمحافظة الأنبار، بدا مؤسفًا مجيئه بناية مفتوحة للعمل، وبعد لحظات من ذلك عاد للسيارة وأظهر ابتسامة طويلة وهو يقول لشقيقه:

- -وها نحن الآن نبدأ من صفر جديد، حتى لقمة الرزق في الحرب حرام-.

رمقه أخوه دون أن يتزلزل لسانه بكلمة، حرك رأسه كمن يحتج بصمت.

كان ينطلق في الفضاء ردح من الأغاني التشجيعية للجيش والنشيد الوطني العراقي انطلق عبر مكبرات الصوت في الأنحاء:

-أمة تبني بعزم لا يلين

وشهيد يقتفي خطو شهيد

شعبنا الجبار زهو وانطلاق

وقلاع العز يبنيها الرفاق
دمت للعرب ملاذًا يا عراق-
اختفى صوت الأغاني عندما رفع أذان الظهر من المسجد المقابل للمطعم المنكوب، نزلت حينها صبا من السيارة تقدمت صوب الجنود حتى تعثرت بجندي يقف أمام سياج خشبي يحجز الشارع المبتور، تأملت وجهه الهادئ، وزيه المقلم بألوان مختلطة الخضراء منها والبنية، دنت منه حتى شعرت بأن شيء بداخلها بدأ يهتز، ظلت تقترب حتى سمعت صوته الغليظ يخرج من أسفل خوذته الحديدية، انتبه أيمن للصوت فركض صوب صبا معتذرًا للجندي وهو يقول:
- -أعتذر لك، هي لا تعرف أن المنطقة محظورة للعامة-.
اكتفى الجندي بتلويح بندقيته إلى أعلى مجيبًا على أيمن في حين نظر إلى صبا وهو يسألها:
- -ماذا كنتِ تريدين؟-
زمجرة صبا للبندقية، فرفعها الجندي إلى أعلى خاصرته، استغرق الأمر دقيقة قبل أن تجيب وهي تشير بأصبعها صوب الدائرة التي تقطع الشارع:
- -هل هذا فخ ترابي؟-
ابتسم الجندي قبل أن يخبرها:
- -لا، إنه سرداب يختبئ فيه المواطنون وقت إطلاق الصافرة-.
أخفى أيمن دهشته من شجاعة صبا، واصطحبها إلى السيارة وهو يقول:
- -ثقتك ستقتلنا يومًا ما-.
كان قد تردد في الشهر الأخير الكثير من المنشورات تحمل شعار الجيش الأمريكي، مكتوبة باللغتين الإنجليزية والعربية بعضها تحذيرية والأخرى

تحمل لكنة التهديد الصريح، وأكثر ما كان يميز هذه المنشورات عبارة -القوات الأمريكية محررة وليست فاتحة- ممَ يرفع كف الإدانة لأنها تقول أنها ستدخل من باب أنها ستحررهم من طواغيت البلاد، وليس من جانب الفتوحات التي ستصبح بطعم الاحتلال، كان يذكر وسط سطور تلك الشعارات بعض المناطق المستهدفة ظهر على رأسها ضواحي بغداد، التي وبشكل خاطئ توزعت وسط مباني المواطنين الكثير من ثكنات الجيش العراقي على صدد الخطط العسكرية التي تسربت معظمها من قِبل المخابرات الأمريكية وبعض المأجورين الذين خانوا الوطن.

بعض القبائل لم تتحمل التحذير بقدوم الخطر فراح بعضهم إلى الشمال قرب حدود -كركوك-، حيث كان الإقليم الكردي خارج الحسابات التي تداعت من أجلها الحرب، والبعض الآخر اتجه غربًا إلى -العكاشات- و -الوليد-، حتى أن البعض قرر السفر خارج البلاد إلى أن يستقر الوضع، كانت كل محافظة تنشر العديد من حملات التفتيش على حدودها بعدما انتشر خبر أن بعض أفراد الجيش الأمريكي يتحركون بحرية كبيرة في وسط بغداد، حتى أن البعض قرر السفر خارج البلاد إلى أن يستقر الوضع.

*****

عند الغروب، أحس الجميع بهدير الطائرات يتجه صوب بغداد، لقد حملت تلك المدينة الليل والحزن في صدرها المتقد، بدأت الذخائر تهوي كوابل المطر بشكل عشوائي في كل مكان، هذا المساء لن تفتح الأيادي النوافذ وحده سيفتحها الموت، تناثرت الأرواح بعدما استسلمت إلى الموت العميق، لم تمنح الحرب فرصة الاحتضار، رفع أيمن صوت المذياع الذي كان يشرح ما يحدث في المناطق المقصوفة، تهادى إلى قلبه غصة مؤلمة، قال لأخيه دون

أن يسلم الأمر للتفكير:

- -يجب أن نعود الآن للبيت-.

أدار محرك السيارة ودعا صبا وأخاه للركوب، كان الظلام قد تفتق في أحشاء الفضاء، تحركت السيارة باتجاه بغداد إلى أن أوقفها جندي يقف على أقصى حدود محافظة الأنبار بدا لهما من قوات الشرطة، أمر بإطفاء بلورات السيارة ليرى بشكل واضح كل من يجلس في السيارة، نزل وقتها أيمن متوسلًا بأن يتحرك في أسرع وقت، تأمل الجندي قامته بنظرة مشفقة، واستمع له بطريقة مستهترة وطالبه بأن يعطيه بياناته الشخصية هو ومن معه، استلم أيمن ورقة تحتوي على أسئلة جاهزة ليملأ فراغاتها، كان يدرك أن اللحظة لا تتحمل كل تلك الإجراءات الروتينية، التي يتخذها الجندي بهذه البرودة، لكنه بدا متعاونا حتى لا يعيقه عمّا أقدم عليه، قضى الأمر كما يجب، وبعد لحظات من الرتابة أمسك مقود السيارة بغيظ وتسارعت نبضات قلبه التي لم تتناسق منذ أن أتاه الخبر عبر المذياع، استحوذ عليه الكثير من الأفكار التي لا تحمد، ظل شاردًا في غياهب أفكاره التي تتواطأ مع أشياء كارثية فظيعة، لقد فتح باب الشك على مصراعيه، واستسلم لكل بوصلة تتجه صوب الاحتمال الأخطر، دار بخاطره صوتها وهي تهمس له -أعتني بصبا جيدًا-، انسدلت على خده دمعة حادة ساخنة تبلور فيها ملح الأمل المنصهر، لم تكن الأجواء توفر له المعنويات الكافية ليتجلد.

بدأت نغمات القصف تعلو مسامات القلوب كلما اقتربت السيارة أكثر نحو حدود بغداد التي بدت من بعيد مظلمة إلا من وهج الخراب، أطفأ أيمن أضواء السيارة وأغلق صرير المذياع وقلل من سرعته تهيئًا للوصول بشكل سلمي.

---

هذه الأحاسيس تقطف استقرار الروح كأن شيء يهتز دون توقف، زاده الخوف حماسة للتقدم، لكن الظروف لم تسعفه لذلك، لقد عرقله صياغة الطريق التي تغيرت عمَا كانت في الصباح، يبدو أن قذيفة أطاحت بالمبنى المقابل للدرب منذ قليل، عاد للوراء بسيارته وأفكاره المنكوبة ليسلك شريطًا مروريًا أخر، ظل هكذا لأكثر من ساعتين دون أن يهتدي لممر يعبر من خلالها لزوجته العالقة في منتصف أدغال الموت.

كان على الموت أن يكون فطنًا ليقنعنا قبل أن يسلب منا أحد.

# مذکرات صِبا

# -١-

يد من قلبي

أين آذان الحائط التي تسمعني الآن..!
نوعٌ جديٌد من الألم أن تكتب كلما أتقد بداخلك شيء، وأن تراهن بما قدمته الأبجدية لك أنه بوسعك استثمار أوجاعك لصنع كتاب رائع.
في أقل من عامٍ فقط اكتشفت أنني مجبرة لفعل ذلك، لأنه ما عاد بوسعي أن أطأطأ من أجل الاكتفاء بحسنة وحيدة قد لا تصل إلى السماء، مدركة أنني لا أفهم الحزن، البؤس، الشجن، وأتساءل كيف براهم الله بهذا المكاره.
لا أدري أأنا أكتب الآن بدافع الكبرياء أم بدافع البكاء، أم هي شهيتي أن أصنع سلامًا على ورق، دعني أشطب كل ما سبق وأعيده بصياغة أخرى، أشد التصرفات غباءً تحدث ونحن تحت وطأة الألم.
عندما قررت أن أتحول إلى بطلة لم يهمني أن أموت في المنتصف أو أن أستمر حتى أخر حرف، بل كان إصراري أن أكتمل ولو في بطن تابوت، جلبتُ لنفسي رزايا النقاد، وكيف ستحملني يد مبتورة انصهرت في حكاية أخرى.
مأزقي الحقيقي ليس في القبض على طرف الخيط الذي أبدأ منه بل في الطريقة التي سأنهي بها بشكل متحذلق، أيجب عليّ أن أقنع نفسي أنني لا أخاف النهاية فقط لأنني لا أعرف كيف أبدأ من جديد، ربما هو وهم الكتابة.

- -صِبا..!-

منذ خمسة عشر عام لم أسمعها من أمي هذا لأن الله كان يحبها كثيرًا، لهذا اختارها أن تكون إلى جواره، وأن تراقبني من مكان أعلى من سقف الدنيا، أعتقد أن اسمي كان سيخرج من فم أمي بشكل مختلف، هذا لأنه اليتم الحقيقي ستشعر به حين لا تناديك أُمك.

وفاة أمي كان علامة تحول كبيرة في حياتي، ليس سرًا أن أخبركم أن الشيء الوحيد الذي تغير بعد أمي هو طعم الحياة، أقحمتُ بعدها في عزلة قاتلة ويأسٍ محكم، الإحساس بأن شيء ثمين رحل إلى الفوق الذي لا تعرفه هو جحيم دنيوي بالغ القسوة، وأن المسافة التي بيننا هي عمر مقدر لي أن أعيشه دونها، كانت العلاقة بين أم وطفلة علاقة تكفر بالقنوط، لأنها لم تكن مجرد أم، كانت ذات يوم سطر أبيض، وقصة لا تمحى، وكتاب أنكفئُ على أسراره، وحكاية لا تكتب، وجلبة روحي، وأكثر وأكثر، لكنها ماتت، والأموات وحدهم يأخذوننا إلى حيث تتوقف الحواس.

كنت دائمًا مدللة أمي، تستطيع وحدها أن تمتعني ولو بكلمات مكررة، لم تبخل عليّ يوم بالعمق الذي كنت أرقبه، بقدر ما كانت تطلعني على أسرار الحياة كانت تحذرني من مكاره الدنيا، من جهة ثانية لم تحمل أمي في قلبها شيء من الحذر، ربما كانت تعرف كيف تقف على الحافة دون أن تتصور أن السقوط يلصقنا بالألم، أحيانًا تذكرني أن أبسط الأمور دمعة وأقلها بساطة بسمة لذلك كل الأمور مقبولة.

كم أحلم أن تجيئين في حلمي وأنت تقفين على الجسر المعدني الذي يطل على باحة البيت، وأنتِ تعيدين حكاياتكِ القديمة كلها لي، ولا تنتهين قبل أن أنام على صوتك، يعذبني أننا لا نحلم بما حولناه يومًا إلى جملة، سمعتكِ

مرة تقولين -أحلامنا ثرثرة الرقاد-، كأنكِ أخذتِ قطعة من لسان فراشي التي تخصك.

-يديكِ يا أمي ضوء وفنار وقِبلة تستدعيني لأن أستمر-، إضافة إلى تلك الجملة التي قضيت عمري وهي تسحبني نحو ظلك، كأن هذه كلمات عوامة أقولها لأطفو فوق الحياة فتنتهي جولة العزلة التي تبدو كشفتين صمغيتين، يا الله أي أم تأسر بنتها بهذا الجنون.

لم أفعل شيء حينما فارقتني، ببساطة لم أستوعب الأمر، عندما سألت أبي أين أمي أخبرني أن الأمر يتعلق بسرٍ إلهي حتى هو لا يدركه، تركتنا مذهولين في حرب لا تنتهي، يومها كانت الوحيدة في البيت حيث اختلا بها الموت وباغتها وهو يختبئ في قذيفة طائرة، لم أسامح بعدها أي طائرة، اختبأت خلف ساق أبي وأنا أرى وجهها بارد مثل الموت، والمدينة وقد قطفت روحها قبل أن تذبل، ليس في الدنيا شيء يفجعنا أكثر من الموت، كانت ليلة رديئة كجسد أرملة منسية، شعرت يومها أن فضلات العالم كله تجمعت في هذا الموت.

كنت في التاسعة من عمري حين قرر أبي السفر إلى بغداد، كنت أتحين لحظة السفر كأنها دمية سيلكون جديدة، نظرت لتفاصيل الموقف ببراءة، كنت لا أعرف معنى الغربة أو أننا نتوجه إلى قبر أمي، حتى أنه لم يكن مكشوفًا على جبين القدر أن بغداد وكل ما بها من ألوان ستسقط بهذه الطريقة الفظة، ابتعدت الحياة وما بقي سوى خراب مفجع، لقد غاصت العراق في هذه الآونة تحديدًا في وحل الساسة الذي لا يغفر.

بعض الأمور لا تأتي طواعية، لكنها حين تحدث يتغير معها كل شيء.

# -٢-

## الجد الذي في اللوحة

مازال في القلب متسع لبكاء جديد.
سيرتنا بدأت في مساء ٢١ من كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢ في بلدة تابعة لبغداد تدعى الرصافة، العجيب أن اسم المدينة هو ذاته اسم القرية التي نشأ فيها أبي في سوريا، لعله وضع في حسابه صنع خلاص جديد باسم يعرفه جيدًا، استقرت الأذهان صوب بيت مزركش بالأدعية والأصالة، تتسابق النظرات لتحوم في معانيه الكتومة، تجولتُ في خباياه، في كافة الممرات التي اعتبرتها منذ وصولي مشوارًا صغيرًا يصلني بعالم جديد، لم يتملكني وقتها الإرباك الذي ينفجر في اللحظات الأولى من أي شيء، استوقفتني صورة عملاقة في ممر يصل لردهة البيت، سألتُ وقتها أمي بحماقة:
- -هل هذا جدي؟!-
جذبتني وقتها وهي تتنكر من سؤالي أمام الغريب الذي كان يضع حقائب الهندام إلى داخل الغرف، لم أكف عن الإلحاح حتى وصل بها الأمر أن سدت فمي بكفها وهي تهمس باقتضاب:
- -صه، صِبا-.
لم أكن مستوعبة أن اسم هذا الرجل أكبر من أن تلفظه أمي أمام أحد، ما قيمة أن نضع صورًا لأشخاص نخشى أسمائهم.
بإلحاح طفلة استمريت في معاودة السؤال حتى غاب الغريب عن البيت،

ما أذكره أن الرجل الذي كان في الصورة يحمل شاربًا سميكًا، وقبعة خضراء تميل بنصف زاوية عن رأسه، وتنفرج من فمه ابتسامة معوجة غير عادية، كلما رأيت هذه الصورة قادني فضولي الذي لم تكن أمي متساهلة أبدًا معه، بدا لي أن أمي كانت قاسية حين ارتاحت بهذا الصمت، كان يفصلني نصف فرصة لأسأل أبي عنه، هل هو جدي الأسطوري الذي بحثت عنه في الحكايات، والتي لكم أقمت عليها عرائسًا في سباتي، أقنعت نفسي أخيرًا أنه جدي، ربما لأنه كان يحمل تفاصيلًا امتدت منه في خيالي.

كنت حفيدة رجل كما قالت أمي يفوق البلاد حجمًا، كان الأخ الأصغر بين أبناء جدتي ولد في فترة الانتداب الفرنسي بسوريا، لم يذكر تاريخًا محددًا ليوم ميلاده، تهيأ والده وقتها للسفر خوفًا من أن ينضم إلى صفوف المقاومة الشعبية، فعزم الرحيل إلى يافا الفلسطينية قبل العدوان الإسرائيلي على البلاد، هو وزوجته وثلاثة أبناء غير جدي، تقول أمي أن الرحلة تحولت لمغامرة تفوق الحرب فجاعة، أصيب أثناءها الأخ الأكبر لجدي بفيروس في الرئة، وقبل أن يتمكنوا من اجتياز الحدود الفلسطينية لفظ أنفاسه الأخيرة.

-قف أمامك حدود-، بعدما شوهدت هذه اللوحة أمامهم تردد جدي الأكبر كثيرًا في العبور، وفكر جليًا فيما حدث لربيبه، ولعل هذه الفاجعة قد تكون رسالة قدرية ليتراجع عما أقدم إليه، قالت له زوجته: -لا أرى سببًا لنتراجع، فلندخل الحياة من بعد هذه اللوحة-، أصنّ قليلًا ومن ثم تبدل تفكير جدي الأكبر، وحمل معه فقيده حتى الوصول إلى يافا، لم يكن وقتها يقصد مكانًا معينًا بيافا، كان يجري اختياره على منطقة ساحلية مميزة وحسب، وقبل أن يفتش عن مربع سكني يلملم ضجة الذاكرة والعيال قصد البحر وألقى فيه صبيه، تقول أمي أنها إحدى أعراف الديانة المرشدية التي لا

تؤمن بالدفن، قاطعتُ وقتها أمي بسذاجة طفلة لا تكف عن التساؤل:
- -هل أكل السمك شقيق جدي؟-
- -سبق وأن أكلته الحياة-.
في أثناء تلك الفترة، التي قضاها جدي في يافا، تعرف والده على فتاة كانت تتردد على المحل ،الذي قام بإنشائه بعد فترة وجيزة من وصوله إلى هناك، كانت فلاحة أرملة مليحة الملامح في مثل عمر زوجته، اعتناقها للديانة الإسلامية أدى إلى تعسر العلاقة فيما بينهما لفترة، قبل أن يقنعها أخيرًا أن يتزوجها زواجًا مدنيًا لا دخل للديانات فيه، وفي فوضى تلك الفترة انسحبت والدة جدي وهي تقاسي مرارة الغدر والغربة وتخبطت في رحلتها من قرية لأخرى ضاغطة على النيران التي شبّت في قلبها من وفاة بِكرها وخسارة زوجها بطريقة غير عادلة.
اتسع سخط جدتي حينما عادت للوطن، وقاست حتى تفطر قلبها بكاءً وحسرة، دأبت على تربية أبنائها وعملت في الأرياف دون كلل، وهي تبذل ضعف طاقتها من أجل تصحيح ما تبادر من أبيهم، وكان من مظاهر قوتها أنها لم تكن لتشعرهم أبدًا بهذا اليتم الذي لحق بهم.
كل التفاصيل تندفع نحو الذاكرة، هذا الاحتكاك يصنع الحرائق.
مرت السنون ولم يتغير شيء، انشغلت الجدة بتخطيط مشاريعها البسيطة في الحياة، وعلمت بالعدوان الإسرائيلي على يافا، برغم الحزن الذي اجتاحها من النبأ إلا أنها تمنت لزوجها نهاية معقدة المصير. لم تحصل وقتها فلسطين على حق اللجوء العربي، فحينها أغلقت الحدود ومنع عدد كبير من الفلسطينيين وذوي الجنسيات الأخرى من المرور عبر أيٍ من الحدود المجاورة، ضمنت وقتها الجدة أن زوجها المنفلت لن يستطيع الرجوع مرة

أخرى بوجه قد مسخه الندم.
في أثناء ذلك كان جدي بلغ سن يمكنه من الوقوف على قدميه مجابهًا الحياة، ولم تكن هنالك جدوى ولا رغبة من البقاء في الوطن، لذا لم يستمر طويلًا وسافر إلى العراق، وتعرف هنالك على رجل يدعى -أبو القاسم العلوم-، أمي كانت تقول أنه يدعى محمد لكن الاسم يُكنّ في العراق بـ أبو القاسم، تشاركا في مشروع بسيط على حد ذكرها أن الخطابات التي كان يرسلها كان تحمل مذاق الأريحية التي تغمر الجد، كان يعمل في مطعم للمأكولات السورية حج إليه الكثير وذاع صيته في الأنحاء.
أتقن جدي وقتها ستة لغات، تقول أمي أن حبه الشديد للسفر دفعه لذلك، في خلال أربع سنوات تلون لسانه لعدة ثقافات، ربما ساعده على ذلك الأماكن السياحية التي تضج بها بغداد، أبرز اللغات التي تحدثها الكردية الكرمانجية التي يتحدثها الكثير من العراقيين من أصل كردي، تعلمها في الوقت الذي قرر فيه هو وكفيله أبو القاسم بناء فرع جديد في الإقليم الكردي في أواخر سبعينات القرن الماضي، وكذلك الفرنسية التي تعلمها على يد زوجته لارا، تقول أمي أن قصة زواجهما أغرب من الخيال، عندما وجدها في ساحة المطعم أدرك بقوة أن الحب قد يبدأ فجأة مثل الجريمة.
أول خطوة في الحب هو لفت الانتباه، لكن كيف فعلها مع سيدة لا يجمعهما شيء سوى سقف مطعم، عرفت من أمي أنه تقدم إليه وهو يسألها بالإنكليزية:
- -هذه الزيارة الأولى لكِ لبغداد-.
أجابته:
- -بلى-.

- -تتزوجيني.؟! -أمسك بطرف يدها ولم يعطها فرصة لتجيب.
عرفت يومها لماذا يصبح الرجل مجنونًا حين يحب، لارا كانت فرنسية من أصول لبنانية تعتق حبها لبغداد بسبب جدي، عاشت معه هناك حتى عام ١٩٨١، وبسبب الحرب العراقية الإيرانية قررت العودة لفرنسا طالبة من جدي الذهاب معها، لكنه رفض، فقررت السفر بمفردها.
بعد مغادرة لارا عاد جدي لسوريا وتزوج وقتها جدتي التي أنجبت أمي، وبعد عام من زواجهما أخبرها أنه سيرجع للعراق ليصفي أعماله مع أبو القاسم ليستقر معها في سوريا.
بعد عامين بلغت الحرب ذروتها، خاصة على الحدود وتحالف الإقليم الكردي مع إيران، وتهدمت وقتها معظم الممتلكات العراقية هنالك من بينها مطعم جدي الذي لاقى حتفه فيه، تقول أمي أن جدي لم يكن يعلم أن زوجته كانت حُبلى وقتما عاد إلى العراق، أنجبت جدتي أمي ولم تعرف بوفاة زوجها إلا بعد ثلاثة أعوام حين استقبلت خطابًا من كفيله، لقد عاشت على أمل عودته التي لن تحدث، وعاشت أمي طفولة مماثلة لطفولة والدها تدحرجت في أعماق اليتم، وهي تحس بخوائه وفراغه بداخلها مؤمنة أن الزمن اتفق على أن يكسرها.
حين تزوجت من والدي قامت بنفسها وهيأت قلبها لرجل بإمكانه أن يملأ كل مسامات الوجع فيها، فالأنثى كما قالت تحتاج ليد، يد تخلقها من جديد.
من شأن الأيام أن تقلب الأدوار وأن يعيد التاريخ نفسه، ربما هي مصادفة وربما كما قال أبي -الفارق بين الصدفة والحظ هو اليقين الذي نؤمن به نحوهما-، في هذه الفترة ضاقت الأمور وتأزمت حتى قرر أبي السفر إلى

العراق، حاول الاتصال بـ أبو القاسم الذي لم يتراخ ولو لثانية واحدة عن مد يد العون، وقام بكفالة أبي مرة أخرى ليعمل في أحد مطاعمه في الفلوجة، سفرنا إلى بغداد استدعى بداخلي حكايا جدي فآمنت أنني سألتقي به يومًا ولو في شق صورة.

# -٣-

قبالة الحقيقة

كتلة من الغباء تقف عند مؤخرة رأسي، أشعر بها الآن.
النسيان شاطب سيء أمام الأشياء التي نتعلق بها، ما المشكلة أن تغيب في زمرة الأشياء التي تعود، لقد تعبتُ، وتعبتْ معي لهفتي، أعرف أنني كنتُ صغيرة على تحمل عبء بهذه القسوة، لكنني لم أتوقف عن دفع ثمن شغفي بكاءً وحنين، كنت أقول لنفسي حين لم أملك شيء - صبا الضعيفة البائسة حين تكبر ستثبت للعالم المحبط أنها لم تعد هشة وأنها بوسعها أن تخرج ضوء من عينيها حين تتناول وجبة العشاء جيدًا-، لكنني كبرت بتلك الهشاشة وجبلت فوق عظامي ونخاعي، مسكت أكثر من مرة صورة أبي كنت أبحث فيها عن وجه جدي الذي فقدته، أحاول أن أُخرجه منها، تأوهتُ حتى استنزف الحزن روحي وأقتص منها جزء كبير، وتشكلت رغبة ساحرة في بكاء مدوي، إنني والله لا أكترث لكل دمية في الكون مثلما أكترث لبقاء جدي.
ثمة مسافة تستطيع من خلالها أن تختبر قدرتك على النسيان.
كان الجزء الظاهر من الصورة لا تصل إليه قامتي القصيرة، فكرتُ أن أضع حقيبة أسفلها لأجلبها إلى صدري، كنتُ طفلة ترى أن الأشياء المهمة يجب أن تكون قريبة وحسب.
صحيح أن الصور التي لا تحررنا من أصحابها سجنٌ صغير، لذا لقد حضرت

هذه الصورة بشكل غريب، ولم أسترح إلا حين استعنت بكرسي خشبي ولمستها بيدي، كنت أحمل طعم الخوف وأنا أمسح على لحيته دون أن يزعجني منابت شعره، اكتشفت يومها أن الصور ليست حية كما كنتُ متصورة.

عند الباب، كانت تراقب أمي المشهد، لا أدري تمامًا ما الذي حدث وقتها، لكن الظاهر أن أمي لم تصحح لي الفكرة الضبابية التي اغتالت خيالي وقتذاك.

لم أشاهد هذه الصورة في اليوم التالي، ظهرت مكانها بقعة داكنة توحي أنها مكثت كثيرًا على هذا الحائط، خلقت تلك اللحظة مزاجًا سيئًا كأنني فقدت لعبة لم تشبع طفولتي، توجهت صوب غرفة أمي غارقة في دموعي، سمعتها دون قصد تقول لأبي -من أجل مصلحة البيت يجب أن تختفي هذه الصورة-، ترددت قليلًا قبل أن أطرق الباب، وبدا لي الأمر أكثر تعقيدًا من أن أفهمه، تفاديت هذه الجملة وناديت بصوت باكٍ:

- -أمي، أمي-.

جاء صوتها خلف الباب:

- -نعم يا صبا!-

قلت لها وأنا ألومها:

- -أين جدي؟-

- -جدك مثل أشياء كثيرة رحل إلى السماء-.

- -لكنه كان هنا.. -أشرت نحو الحائط الفارغ منه-.

أهملت كلامي وهي تقول:

- -اذهبي لترتاحي الآن-.

لو لم أعرف أن أمي هي التي تحايلت بهذه الطريقة دون أن تشرح لي الأمر

لكان الأمر أبسط، أشياء كثيرة تغيرت بداخلي بعد هذا الموقف، أعرف أن كل شيء يحدث دون تفسير يقتل أحلامنا، لكن رفضت أن أستسلم بغياب الصورة بهذه الطريقة المتعبة.

مر أسبوعان على هذا الحال، أتحرك أمام الحائط، أرفع رأسي إلى الأعلى لتنكسها الخيبة الظافرة أمامي ومع ذلك أستمر في العودة بأملٍ ليس له نظير، تتوزع النظرات المفخخة بالكثير من اللوم بيني وبين أمي بلا نتيجة، كانت تكابر إلى اليوم الذي أخبرني فيه أبي أنني التحقت بإحدى مدارس المرحلة الابتدائية بالمنطقة، كنت أعتبر المدرسة مخبأ صغير، كنت أحب أن أمارس تمردي في مكان كهذا، إضافة إلى أني أزعم تميزي في صنع صداقات عديدة لا تقتصر فقط على الشخوص بل الأشياء أيضًا، ربما لهذا السبب أشعر بانتماء شديد تجاه اللوحة.

اصطحبني أبي في الصباح الذي رأيت فيه خنجر الصدمة يغوص في خاصرة الحقيقة وصلنا إلى المدرسة التي كانت تشبه من الخارج البيت الذي نقطن فيه، كانت تحمل اسم -الزهراء-، قدمني أبي لمدير المدرسة الذي قرأت من تصرفاته إهمالًا واضحًا يخلو من الذوق الذي ينبغي تقديمه للغرباء، سأل أبي وقتها:

- -الديانة غير مسلمة؟!-

تأنّ أبي قبل أن يرد عليه:

- -إن كان يريحك أن تكتب مسلمة اكتبها مسلمة-.

ألقى الملف من فوق المكتب باستهتار، في الوقت الذي انتبهت فيه أن ذات الصورة التي في البيت كانت معلقة خلف المقعد الذي يرتاح عليه المدير، رفعت رأسي وأنا أدنو منها في ذات الوقت الذي مازال الحديث بينهما محتد

عن شيء لا أعرفه، تهاوت الكلمات من جانب إلى آخر، توقف الحديث عند اللحظة التي قال فيها أبي:

- -وحياتك لا فرق بين مرشدي ومسلم، الأمر لا يعدو وجود النور في القلب-.

كنت لا أزال تحت وقع الدهشة، من أتى بهذه الصورة إلى هنا، لاحظ المدير حالتي الساهمة فدرج يخاطبني:

- -تحبي الرئيس أبو عدي؟!-

كنتُ قد أوشكت أن أستسلم بالجواب حتى سحبني أبي من كتفي قبل أن أنبس بكلمة، غزا سؤالٌ مخيلتي -من الرئيس أبو عدي؟!-، -ولماذا أحبه؟!- ، عندما رحت للفصل كانت ذات الصورة معلقة أعلى سبورة الحائط، لا أصدق هل كان وجودًا مزيفًا، حتى من جوف ذاكرتي تمنيت وقتها أن يكون جدي، ولكن ليس بهذه الطريقة أبدًا، الآن فهمت سبب تصرف أمي بهذه الفظاظة.

هنالك أشياء وجودها محزن، وأشياء أخرى رحيلها أكثر حزنًا من بقائها، ظهر ذلك جليًا أمام وفائي المتأجج والذي استقبلت من خلاله أول خيبات الطفولة، أعلم أن كل الأشياء نستقبلها بغرابة لكن غرابتي جاءت مبتعدة عن الحقيقة، ربما لم أفهم الدور الرئيسي الذي شغلته الصورة في البيت، ولماذا على وجه الخصوص رفضت أمي مكوثها على ظهر الحائط، صحيح قد لا نحتفظ بحرية بقاء الأشياء في أماكنها الصحيحة، لكنها الأشياء تنتهي وتتجدد كفاكهة العام، ومع ذلك مازلت أشعر برهبة نحو اللوحة.

شاق هو أن يجبرك شخص على القيام بشيء لا تفهمه، للمرة الثانية، تجاوز الأمر كونه طابعًا يوميًا، حدث ذلك خلال الأسبوع الأول في المدرسة، كان التلاميذ ينكفئون على رسم علَمْ يدلف بثلاثة ألوان مختلفة تتوسطه

كلمتي -الله أكبر-، والمعلم يردد -هذا جزء من الهوية، يجب أن تفتخر بأنك عراقي-، أخذ الطلاب ينشدون بصوت واحد مع المعلم أناشيد بلهجة يصعب عليّ استيعابها بينما كنت أرسم بطريقتي علمًا بثلاثة أشرطة أفقية ملونة وفي الوسط نجمتان خماسيتان خضرتا اللون والانتماء، توقفت يدي عن الرسم حين طالع المعلم اللوحة وهو يسألني:

- -هذا علم اليهود؟-

ضحكات التلاميذ من حولي أقصى عقاب تجرعته وقتها، بعدها مزق اللوحة وأجبرني على صنع أخرى تشبه كثيرًا ما رسمه زملائي، مدت صديقة لي أصابعها نحو وجهي حين لمحت الدموع بدأت تلمع في عيني، كانت تحمل في عينيها ذات الحرارة التي تشع من قلبي، ساعدتني على مقاومة الأمر وقدمت لي منديلًا ورقيًا ومن ثم همست في أذني:

- -الله غالب-.

قرأت من وجوه التلاميذ مدى الغربة التي تقتل النفس وتكسر الروح، جلباب الوطن الذي شعرت أنني عارية دونه، فقدته، كان في قلبي رغبة أن أسحق كل الذين سخروا مني وأن أصنع منهم مومياوات نتنة لا تقاوم الموت.

# -٤-

-فاء- الغرفة -باء-

كل شخص نمر به إما أن يكون رسالة أو اختبار.
عندما غادرت الفصل تقدمت نحوي ذات الصديقة وهي تحثني أن نتكلم خارج خارطة المدرسة، كانت تدعى منال، سودانية الأصل ولدت في العراق عام ١٩٩٤ حيث جاء والدها مع الوفد الطبي للعمل في إحدى وحدات المعالجة الطبية في -تكريت-، تخبرني في هذه الآونة فتحت العراق كل منافذها للوافدين من كافة الدول العربية خاصة مصر والأردن وسوريا والسودان للعمل، تعويضًا للنقص الذي ضرب مجالات عدة جراء الحربين السالفتين.
جاء شغفي حينما دعتني منال للعلب معها على إيقاع إمضاء الوقت لا يمر، هذه الفتاة ذات الدفوف السمراء والقلب الطيب الأبيض كانت تعي أن الصداقة قد تنسينا مذاق الغربة الأزلي، بحثت عن الأمان معها وتقبلت موعدها الذي أفسدته أمي حين اقترحت عليها الأمر، توسلت عند قدميها حتى وافقت على مضض، لكنها طلبت مني أن أعطيها وعدًا ألا أتأخر حتى الغروب، تراخيت أمي عن قرارها خاصة حينما عرفت أن منال جارتي في الحي، لم يكن يفصلني عنها سوى مصنع الثلج الذي يحيل المنزلين ويشطر الحي إلى زمرتين متساويتين.
كنز الحياة صديق يفهمك.

---

ليس ما يشغلني في أي مكان أن أصنع الصداقة، كل ما يشغل تفكيري هو الوهم الذي ينتابنا جميعًا ونحن نصادق أحد، في البداية يبدو مستحيلًا أن تفارقه، وقد تتفادى الكثير متغاضيًا عن كل ما يداهم العلاقة، هذا ما طالني منذ أن كنت في وطني.

لقد عشت طفولة مغيبة، تمنيت أن أعيشها كما كتبها يوهان كريستوف آرنولد لكن قلم مجتمعي كان أقوى، أصبح قلبي وقتها في حالة اقتضاب، لم يكن له سوى أن يمضي بلا تفاصيل، ينبض فقط، أحيانًا كنت أسند ظهر أمنيتي على حائط مبكاي وأتخيلني بلا حب يزداد نحيبي قسوة كلما تعاظمت تلك الفكرة في قلبي، سافرت عن وطني لست مغتربًا وإنما مقتربًا بكل ما حاولت اقتنائه في يوم، لكن يد الأيام كانت أقصر من تبليغه لي، كنت أصطدم بالأحداث من خلال قلبي، لا أصعب من امتلاكك قلب ممتلئ بظلال الماضي.

كانا والداي يعاملاني برفق مبالغ فيه، يدللاني، يعظمان تواجدي في أركان قلبيهما، لكنني ورغم هذا كنت أشعر بالوحدة، أشعر بسماوات تحط بيني وبينهم، برغم تلك الألعاب التي أهدوني إياها لم يعلماني كيف أهدي أحدهم لعبة أو أقله كلمة، صنعوا بداخلي عزلة ثخينة بيني وبين من هم حولي، إياك أن تكلمي هذه .. إياكِ أن ترافقي فلانة.. إياكِ.. إياكِ.. إياكِ..!! ، لم أسمع منهما يومًا غير لغة يملأها التغابن.

أردت أن أعيش طفولتي كما يجب، وبرغم ما كنت أفعله أيضًا كنت بارة بهما، بارة في الحدود التي لا يجب أن أخرقها، لم أكن أعلم أن المعاناة التي قد يعيشها المرء منا قد تكمن في راحته، قد يكونا بذلا من أجلي الكثير لكنهما نسيا أن يعلماني كيف أبذل من أجل من هم حولي، قررت وقتها أن

أتنصل من قيودهما حتى قيدوني بأغلال الغربة، حقيقة أعلم أن والدي لم يسافر كما يدعي من أجل المال، ربما أراد أن يلمس ما فقده في وطنه في مدن أخرى.

ليس بإمكانك في الغربة أن تضع العيد على الأشياء فكل من حولك هم كائنات تنظر لك بشكل ناقص، لم تصل للمستوى الذي يناطح أرواحهم.

لقد حاولت أن أشرع نافذة إلى وطني لكنني فشلت، فكل ما يربطني به هو ماض ضنين، ماض تأكله هواجسي، ظللت هكذا أنمو وأكبر وأتفاقم بأحلامي الوجلة، كان ظني أن الجنة فقط في كل ما نرغب فيه ونراه يبتعد عن أيادي قلوبنا، ولم أدرك أن الجنة بعيدة للحد الذي يجب أن نعبر بالموت قبل امتلاكها، لقد رأيت نفسي أعبر من موت إلى موت دون أن أصل، رأيتني أتقافز بخفة فوق جروحي وحرائقي ببسمة مشبوهة، بسمة كان ينقصها أن تكون بسمة حقيقية.

كنت أعي قيمة أن أصنع ذاكرة تحرضني على البقاء.

عندما دقت الساعة الثالثة عصرًا أحسنت هندامي متوجهة إلى بيت منال، وقفت عند عتبة الباب أودع أبي وأمي، لوحت بإشارة سريعة وتوجهت إلى الشارع قاصدة المنزل الذي يقبع خلف مبنى المصنع الواضح أمامي.

يظهر البيت من الخارج بسور غليظ وثلاثة طوابق مطلية بلون فستقي، اقتربت حيث الباب ومددت يدي لأعلى الجدار قاصدة الجرس، فتحت لي الفتاة السمراء ذات الشعر المجعد والابتسامة الصادقة ودعتني إلى الداخل، كان للبيت رائحة خاصة لم أفهمها إلى الآن، أحسست بشساعة البيت شبه الفارغ من الأثاث، كان على كل جدار أقابله لوحة مطرزة مكتوب عليها كلمات بالحركات الكاملة للغة، قطعت شرودي حين سألت عن أحوالي

أخبرتها:

- -ماشي الحال-.

بعد لحظات، شاركتنا أم منال الجلسة، كانت تشبهها كثيرة، سيدة ثلاثينية ترتدي ثوبًا كأنه قطعة واحدة بلون أخضر، كان حضورها مدهشًا وهي تشهر في كل مرة تنظر لي ابتسامة رائعة، سألتني عن الكثير، عني، وعن والداي، وعن المدة التي قضيناها في هذه المدينة، غرقت في الأجوبة حتى حلّ المغرب، لم أفهم ما حدث وقتها، خرجت منال من الغرفة وعادت بعد دقائق شبه مبتلة، أسدلت طرف ثوبها حتى غطت كل ذراعها، ووضعت فوق رأسها شال، وافترشت فوق الأرض فراشًا يظهر بشكل مستطيل، حركت عينيها نحوي وهي تسأل:

- -ألن تصلي؟!-

## -٥-

دفء مؤقت

الأشياء تتغير حين يجب وليس حينما نريد.
أتذكر جيدًا أنني ذات يوم ألقيت التحية على مقبرة ولم يجبني أحد، هل لأن الموتى لا يجيبون التحية، ليس الموتى فقط من يملكون سحر الصمت حين ننتظر أن يجيبنا أحد، ومع ذلك فقد كانت كل الكلمات مخزية، لقد همس الشيطان في أذني بفكرة مشؤومة، وبذلت جهدًا خارقًا كي أصدقها، لقد قال لي -سابقي كل مشاعرك، فالأحاسيس لديها سرعة أيضًا-.
في فترة طفولتي انسكبت في القالب الذي أعتبره مثاليًا، تجردت من كل الأمور الحالمة وتكشفت أمام الحقيقة العزلاء، تطوقني الذاكرة من كل جنب، أتحرى أشياء كانت تقتلني، أقف على ناصية العودة وأفكر -هل كل الخطوات البطيئة التي خطوتها في خان الطفولة مجدية؟!-، صحيح لم أكن أتقن شيء، كنت أمقت كل شيء لا أفهمه دون سبب دون جوهر، إنه الزمن الماضي، الذي يتراءى لي في حرائق الذاكرة فيهب دفء مؤقت يلسعنا من الداخل.
في الساعة السابعة كنت على الحوض أكرر الحركات التي تفعلها منال أمامي، حينما دعتني للصلاة أخبرتها أنني لست على مذهبك لم أخبرها أنني على ديانة أخرى كي لا يصبح الأمر أكثر تعقيدًا، صكت على وجهها متفاجئة:
- -أنت شيعية-.

لم أفهم معنى الكلمة لكنني من تلقائي أجبت -نعم-، انبعثت على وجهها قسمات مختنقة، ابتسمتُ متجاوزة الموقف وأنا أقول لها:

- -لكن، لا مانع أن أجرب الصلاة مثلك-.

هدأت قليلًا قبل أن تلزمني أن أجر الخطى وراءها نحو الحوض وأكرر كل الطقوس التي تقوم بها، استسلمت خوفًا من أن يعرف والديها بالأمر فيحرموننا من أن نلتقي مرة أخرى، لم أشاهد قط أن اغتسل أحد أمامي بهذه الطريقة، طقوس الصلاة عندنا في المرشدية مختلفة، صحيح أنها ديانة انشقت عن الإسلام إلا أنها تستقل بتعاليمها وعقائدها الكاملة، كانت أمي إذا وقفت للوضوء غسلت فمها وقالت بقلبها -سبحان من جعل هذا الماء طاهرًا مطهرًا وقابلًا للطهور-، ومن ثم تبصق ثم تغسل اليدين وهي تقول بسم الله ولله ومن الله أبدًا أبدًا أبدًا، ثم تحمل رشفة كبيرة من الماء تغطي وجهها وهي تقول -آمنت وصدّقت ورأيت وحققت-، ثم تعيد غسل اليدين وتعيد الكلمات المقدسة بسم الله ولله ومن الله أبدًا أبدًا أبدًا، ثم تغسل القدمين وتقول عند كل رجل -قمت للدعوة وسرت معها وأنا طاهرة-، ثم تعيد غسل اليدين مرة أخيرة بذات الدعاء، كانت الصلاة في عُرفنا تسمى -الدعوة-، يقف الواحد منا بأي جهة فليس عندنا قبلة بيدين مسبلة وهو ينوي الصلاة يقرأ فيها المصلي دعائه ويسجد ثم يسلم.

شعرتُ أنني أتعرى من ذنوبي مع كل صفحة ماء تمسني، وقفت بجوار منال ونحن نتجه في زاوية محددة تدعوها -القبلة-، أنسخ حركاتها تمامًا، قد لا أكون مستوعبة بعد ما أقوم به ولكن ما باليد حيلة.

أثناء الصلاة صدح جرس المنزل بطريقة نافرة، تبعه دقات قوية على الباب، لقد قطع خشوعي الصوت وثارت شكوكي حول أن أمي هي الزائر الآن،

انتابني جزع غريب، فحدثت نفسي -ماذا عليّ أن أفعل الآن؟، أأترك الصلاة فتنتبه منال لذلك، لكن الأمر سيكلفني صداقتها، أم أستمر بملء شجاعتي في الصلاة إلى أن تدخل أمي بنفسها وتشاهدني على هذه الوضعية، تُرى ماذا سيحدث، ربما ستمنعني هي الأخرى من صداقة منال-، فكرت في ردة الفعل التي ستحدث، وكيف سأحل الأمر، وضعت أذني في أقصى أبعاد البيت، بالفعل هي أمي، اهتز قلبي خوفًا مما سيحدث، تفصلني عنها أقل من عشرة خطوات، بل تسعة الآن، ثمانية، سبعة، ستة، خمسة، أربعة، وضعت حذاءها أمام الغرفة، أسمع حفيف النعل وهي تخلعه، فجأة انتبهت أن يدي على بطني طول الصلاة فصرخت وأنا أعلن ألمًا كاذبًا في معدتي، ربما هو الحل الوحيد لحالتي الآن.

- -أمي أمعائي تتمزق-. قلتها وأنا أنثني عائدة بظهري إلى الخلف وأنا أرمقها بنصف نظرة.

ظهرت على وجه الجميع علامات الذعر، بدأت السيدة أم منال تتحدث، ماذا حدث؟، لقد تركت الفتاتين تص...، قاطعتها بصرخة قوية، لقد كادت أن تفسد كل ما أصنعه الآن، انتهت منال من الصلاة وربما خرجت هي الأخرى لم أنتبه بصورة كاملة لما يحدث، نادت السيدة على والد منال، تذكرت وقتها أن والدها طبيب، حتما سُيفضح أمري الآن!

**٢٥ آذار/مارس ٢٠٠٣**

يوم ثان، تدبر أيمن وأحمد سيارة شبه متهالكة فقدت واجهتها الزجاجية جرّاء ما حدث ليلة أمس، قابلهما أثناء تحركهما عجوز اقتربا منها وهي تتمتم -خذاني معكم يرحمكما الله-، جلست الأخيرة بجانب صِبا قبل أن

تهمّ قائلة:

- -الله يلعن الحرب-.

بدا الأخوان في حالة سهوم مقلقة، أحجمت صبا لحظات الصمت وهي تبكي ببراءة غير معهودة، التفت وقتها أيمن شاهرًا ابتسامة حنونة صوب العجوز الذي كان يتفصد جبينها عرقًا وقلقًا، سبقته دمعة جافة متسخة على خدها الشاحب، تحركت السيارة بسرعة خاطفة وسط شارع حديث القصف، كان سعيهما نحو مدينة لم يصل لها الموت بعد لكنهما وبكل هذا العزم من الخروج والتسارع يدركان أن مواجهة الخراب لا تحتاج إلى الشجاعة بقدر ما تحتاج إلى الحكمة.

من أمس تمهد في خاطر أحمد الرجوع إلى الفلوجة والمكوث في أحد السراديب التي تحدث عنها الجندي، قبل أن يتحرك بالسيارة كان قد تحدث عبر الهاتف مع كفيله وأخبره ما حلَّ بالمطعم، لم يكن متفاجئًا هو الأخر، سأله عن عائلته، أخبره عن مدى فاجعته لفقدان زوجته، عزاه الأخر ونصحه بالتحرك إلى الفلوجة وأنه سيلحقهم إلى هناك.

كان في مشهد التحرك مئات يتقدمون بسرب يظهر على وجوههم قسمات الحزن والفاجعة، ركضوا بشكل فوضوي فور ما انطلق صوت الطائرات في الفضاء مرة أخرى، الجميع تناثر خلف حبات الأمل السرابية، لا أحد يفكر في أحد الآن، خرج من مذياع السيارة خطاب عاجل تحدث فيه الرئيس صدام لأول مرة بعد الكارثة التي سقطت فيها البلاد، أنصت الجميع في اهتمام لما يقوله الرئيس:

-بسم الله الرحمن الرحيم: -أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ-، علقت السيدة وهي تصك أسنانها بشيء من الغيظ:

- -هو من ساهم في العدوان مقابل ولا شيء-، كشفت عن شعرها الأبيض وهي تعقد خصلة بيضاء منه مستطردة، -وحياة الشيب يومين والعدو يملأ البلاد ويخلصنا منه-

في محاولة لاستدعاء صوت المذيع حرك أيمن مستوى الصوت بشكل أعلى وهم يستمعون بقية الخطاب:

-أيها الشعب العظيم، أيها النشامى في قواتنا المسلحة المجاهدة.. أيتها العراقيات الماجدات.. يا أبناء أمتنا المجيدة.. أيها الشجعان المؤمنون، في المقاومة الباسلة كنت كما تعرفوني في الأيام السالفات، وأراد الله سبحانه أن أكون مرة أخرى في ساح الجهاد والنضال على لون وروح ما كنا به قبل الثورة مع محنة أشد وأقسى-.

-وطنك لا تعرف قيمته إلا في الحرب -، علقت العجوز في وجوم، استمر الجميع بالإنصات إلى الخطاب الرئاسي كما صوره المذياع أمام احتجاج كبير من السيدة التي تجلس في الخلف والتي لم تكف للحظة وهي تفسد رتابة الإنصات، مع انقضاء الخطاب الذي ختمه الرئيس قائلًا:

-الله أكبر... الله أكبر

عاش العراق.. عاش العراق.. وعاشت فلسطين وعاش الجهاد والمجاهدين.

. الله أكبر.. وليخسأ الخاسئون-.

توقفت السيارة، طق أيمن الباب وهو يقول لشقيقه:

- -ممكن كلمة خارج السيارة-.

تبع أحمد أخاه حيث نأيا بمسافة تصد السمع ثم قال:

- -خير؟-

زفر أيمن قبل أن يستطرد:

- -ملامح تلك السيدة وامتعاضها على حديث الرئيس أبو عدي ولكنتها العربية وهو تتحدث تشير على أنها كردية، أغلبية الأكراد لا يحبون الرئيس، كان لا يجب أن نتوقف حين التقينا بها، تعرف.. أنْ أحمل معي أمريكي أهون من السير معها، لا والعجيب أنها تقول يرحمكم الله وهي لا تعرف من الأساس من الله-.

استدار الأخوان نحو السيارة بعدما حددا فيما بينهما ما يجب فعله، مد أيمن يده نحو صبا متحسسًا جبينها وهي ترمقه باسمة بحنو، لا يدري ما الذي جاء بباله حين قال وقتها:

- -صبا، لو كان ترتيب الواقع سيئًا وأصابني مكروه فاحرصي على البقاء مع عمك-.

تناولت صبا الكلمات بعدما هربت من محجريها دمعة على هيئة حسرة وخوف، لم تعد المناشف قادرة على تجفيف الدموع والجراح، لقد أصبح الحزن جزءًا من هذه المدينة بل أصبح هو المدينة.

كانت البلاد تبدو وكأنها صفيحة معدنية خرجت عن سيطرة الحكومة، أنصار الرئيس تفانوا بشتى الطرق لمواجهة هذه الحرب التي سقطت فيه البلاد، ولكن وحدة الجيش لم تكن على وتيرة واحدة، ولم يخطر ببال أحد أن الجيش سيسمح لبغداد أن تبدو وكأنها مهزومة أمام العالم، كانت إرادة الشعب مختلفة تمام، لقد انقسموا إلى أكثر من رأي، الكثير يؤيد دخول الأمريكان بحجة تخليصهم من ظالم مستبد يدعى صدام، والبعض يقول أن صدام بكل بطشه أرحم من دخول غرباء إلى الوطن.

فور وصول السيارة على أعتاب الفلوجة تملص الأخوان من العجوز بحجة أنهما ليسا عراقيين وأن الجيش يجهز مساكن خاصة للوافدين لا يسمح

للسكان الأصلين الدخول معهم، لم يكونا يريدان توريط نفسيهما حيال الآراء التي تطلقها تلك السيدة، غادرت السيارة باستسلام ووجهاها إلى مكان تجد فيه الأمان الكاف أقله في الفترة الحالية.

الحرب درس مؤلم في الأرقام والخسائر والضحايا.

- -السرداب دافئ من الداخل-. علقت صِبا وقت دخولهم.

مسح والدها فوق رأسها وهو يقول:

- -إنه دفئ السلام يا صبا-.

السرداب بئر عميق مترع بالحكايات والبكاء، كانت الأدمغة البشرية في السرداب مكتظة عن أخرها، يظهر السرداب كأنه غرفة خافتة الإضاءة به ثمانية عشر فتحة تهوية متصلة بمبردات في مكان غير ناء عن الموقع، ملون من الداخل بلون أزرق إلا سقفه الذي حافظ على لون أسمنته الأصلي وربما لم يسعفهم الوقت لطلائه، في أعلى كل زاوية مربع أسود يحفظ مكبرات الصوت التي ترسل التنبيهات والإجراءات الضرورية أثناء البقاء هنالك.

صحح أحمد الجملة في أذن أخيه:

- -بل دفئ الخوف-.

تحركت صبا ممسكة بثوب أبيها حتى لا تضيع في كثافة الحضور، انتبهت لوجود منال في إحدى الزاويا مع أخويها وأبيهم، توجهت نحوها وهي تطمئن عليها لم ترها منذ أسبوعين حين توقفت الدراسة نكاية عن فترة الحصار، احتضنتها بقوة وارتقت الدموع على أهدابها تعلن نوبة بكاء لن تتوقف، شعرت أن يدًا أكبر من كف منال تربت على ظهرها، لكن بكائها منعها من الالتفات، كان أحدهم يراقب الموقف لاحظ أيمن وسط زحام القاطنين سيدة قريبة من فتاته، ظن للولهة أنها العجوز التي كانت معهم

منذ قليل، حينما قام من مكانه ليراها عن كثب كانت قد ضاعت في كثافة الواقفين.

شهقت صبا بصورة متقطعة كمن يستدعي بكاء من جذوة أعماقها وهي تقول لمنال:

- -لقد ماتت أمي يا منال، أمي ماتت-.

احتضنت منال صديقتها وهي لا تعلم كيف تكبح هذا الحزن الساكن فيها.

مسحت منال جزء من دموعها وهي تقول لها بشيء من التماسك:

- -ماما في الجنة الآن، لا تبكِ يا صبا، ماما لن يعجبها بكائك أبدًا-.

طن من الدموع يتسلل على أهدابهما، حكم الصمت، وكلاهما لا تزالان واقفتان في ركن شديد الكثافة لا يسمح بالجلوس، سألت صبا:

- -منال، أين والدتك؟-

ارتسمت على شفتي منال الجافتين ابتسامة عابسة:

- -أمي أيضًا ماتت بالأمس-.

زاد نحيب الاثنتين، كأن الألم تفش ضعفين فيهما، لا تدري كل منهما أتواسي الأخرى أم تواسي نفسها، استراحت منال على صدر صبا مسدلة دمعة رافلة، إنه أنت أيتها الحرب التي تتنفس هذا الحزن الحار بين المشاعر المستديمة وتمنحين الجميع مناخ دامي، لا يحتوي على ثلمة لمرور الضوء والسلام، الكل ها هنا صامت بعنف، بلا قرار، لقد تخطت الأوضاع الحد الفاصل بين الوعي والتيه.

يسألان نفسيهما ذات السؤال:

- -لأي عمر خلق الحزن؟-

إنهما الآن في نفق الحياة المظلم يحطان طفولتهما في موطن الجرح ويمضيان

بعين لا تسلْ البكاء، ويضيعان في نباح الأيام التي اكتلتهما الغم.
لم يستطع أحد أن ينام تلك الليلة، تقف الفتاتان كأنهما توأما حزن، تحدق كل واحدة منهما في الأخرى لتنفث عن مدى القهر التي تحس به، يتيمتان هما الآن، سيعيشان إلى الأبد بلا أم، بلا سماء أقل ارتفاع من التي فوقهما الآن، لطالما نرى أن الأم سماء.
قرر أيمن وقتها أن يسلم على الدكتور محمد والد منال، لأول مرة يصافحه فيها، اقترب منه وقرر أن يقضي الأمسية معه، مسح على رأس منال وأخويها الصغيرين، ربما أدرك مدى الحزن الذي يجمع الجميع، تناول الكثير من الكلام مع الطبيب، وعما ينوي القيام به بعد قضاء الليلة، كان الدكتور يفكر في السفر إلى لبنان، سيستغل علاقته بالأطباء الذين زاملوه لفترات كثيرة في التنقل إلى أن يصل إلى الحدود، عرض بعدها الفكرة على أيمن والذي وافق، سينتظران حتى تنزل الشمس وتبدد جزء من بلاهة الظلام ويبدأن في التحرك، مؤكد أن الرحلة ستكون شاقة.
عند الفجر كان أبو القاسم وصل السرداب المتفق عليه، وصل بالخبر التعس أن القوات الأمريكية تفكر في التحرك البري بعد حفنة من الأيام وعليه أن يستغل كل أطراف الفترة الحالية للتحرك لأنه لم يعد هنالك وقت للتفكير، لم يعد هنالك وقت لفعل أشياء كثيرة، لم يعد هنالك وقت للحزن.
تفحص أيمن وجهي صبا ومنال اللتان قد أهلكهما النوم فتفلطحا على بلاط المأوى يضعان تحت رأسيهما حقيبة هندام، إنهما حتما يحلمان بكابوس الآن لكنه أقل وطأة من كابوس الواقع، نومهما بسيط جدًا وحزين، لم تنبسط ملامح وجهيهما وهما نائمتين، قد هزمهما جهد الحزن الإضافي فقررا الانسحاب بالنوم.

---

كان أبو القاسم قد جهز مبلغ كاف لأيمن وأخوه يستجديان به في الفترة المقبلة يعززان به مستقبلًا قصيرًا إلى أن يتحسن الوضع، وسألهما:

- -ما الذي تنويان القيام به؟-

رد أيمن وهو يشير بيده نحو الدكتور محمد:

- -سنذهب برفقة الدكتور حتى بلوغ لبنان؟-

سأله مذهولًا:

- -ولمَ لا تعود إلى الوطن-.

- -قال أحد الأدباء -وطن المرء ليس مكان ولادته، ولكنه المكان الذي تنتهي فيه كل محاولاته للهروب-.

# -٦-

حرائق الذاكرة

عندما تطمئن لوجود ممحاة ستتعمد الرسم بشكل خاطئ.
كان طبيعيًا جدًا أن أتمنى إرجاع أعنة القدر إلى الوراء قبل أن أقرر الاستسلام لرغبة منال للصلاة، كان يمكنني التملص بحجة أنني تأخرت وأن على العودة إلى البيت، تجمدت في مكاني مثل جزيرة صغيرة في المحيط، وانتظرت ما سيحدث، ماذا سيحدث يعني؟، هل أنا أنتظر عقابًا الآن؟، عقابًا على ماذا، تدلى الأمر من خاطري كما يتدلى من النافذة، وتصورت أبي يحمل بيده خيزران تنتهي على ساقي.
كان الجميع ينتظر والد منال، لم يجبها على الفور اقترحت منال أن ننتظر فربما يصلي الآن، بعد دقائق دخل علينا باسمًا، حينما دنا مني انقبض قلبي أكثر، وحزمت على أمعائي بشكل مضاعف، مست يده السمراء يدي طالبًا أن أرخيها قليلًا ثم سألني:
- -أين موقع الألم، في اليمين- قالها وهو يشير إلى اليسار من خاصرتي.
لم أكن متأكدة من أن المعدة في اليسار، لكني أجبت بشيء من الاستسلام:
- -نعم-.
أطبق السبابة والوسطى كأنهما ملتصقتين ضاغطًا على المكان الذي أشار إليه وقال:
- -هنا؟-

- -نعم-. من ثم افتعلت صرخة تأوه.
- -الأمر بسيط، ألم في المعدة وبمجرد تناول مسكنات سيزول الألم-.
حينما أطمأنت أمي عليّ شكرتهم كثيرًا، نظرت لي بشيء من المكر لم أفهمه، واستأذنت الجميع بالانصراف، قالت أمي في المسافة التي بين البيتين بلغة صارمة:
- -متى يبدأ المغرب عندك؟-
سرتُ وأنا مقوسة ظهري بشكل يوحي أن ألم المعدة لم يهدأ ولم أجبها، لم تواتى لي فرصة الرد، احتجت أن أصمت قليلًا احتجاجًا على طريقتها العنيفة في الكلام معي.
طوال الليل لم تبرح من مخدعي، عذّبها السهاد وهي تظن أن أمعائي تتقطع، كانت قد أخبرت أبي بأسماء الأدوية التي نصحنا بها والد منال فجلبها على الفور تجرعت ثلاثة حبوب دفعة واحدة لكن مرارة الدواء أخف من علقم الحقيقة.
في اليوم التالي قابلت منال في المدرسة، نازلتها ببسمة بهيجة وشكرتها على اليوم الذي قضيته معها، وعادت الحياة كسابقها، لم تسألني يومها عن شيء ولا حتى عن حالتي المزرية التي وضحتْ أمامها بالأمس، فتساءلت في نفسي:
- -أيعقل أن الدكتور قد حصر المرض أمام أمي فقط وأخبرهم الحقيقة-.
إن أقصر علامات الوجع هو التلوي من الألم وأظنني برعت فيه على نحو جيد، لم يكن سيئًا أبدًا ما قمت به في الأمس، لقد حاولت أن أؤجل الحقيقة قليلًا ولم أرد أن أنكرها، وهل كان هناك من مخرج أخر، لقد تصرفت كضحية وجدت نفسها أمام دب الخطر فتظاهرت بالموت كي تعبر من

الموت، لا أنكر أنني شعرت كأنني ارتكبت خطأ كبيرًا حينما تذكرت قول ريك بيتينو -الكذب يجعل المشكلة جزءًا من المستقبل، أما الصدق فيجعلها جزءًا من الماضي-، ربما يستمر الأمر فأنا أعلم أنه لم ينتهِ بعد وما صنعته وقتها هو أنني تجاهلت ضميري بمهارة.

وقفتُ قليلًا ثم التفتُ نحو منال وأنا أدعوها أن تأتيني اليوم، أدرك أن كل واحدة منا تختبر قرارات الأخرى وكذلك ردة فعلها، رأيتها بكل تبلد تقول:

- -سأخبر أبي أولًا-.

هربت الكلمة من أذني وسألتني، ماذا سيحدث لو منعها؟، أساسًا لو كان أخبرها شيء لما وقفت تحدثني الآن، قلت لها:

- -على أي حال أنتظرك-.

*****

عندما يخذلنا اليقين تفقد الأشياء قيمتها.

شهرين على الأقل مرا، كنا في المطار نستقبل عمي أحمد، الذي جاء بناءً على دعوة والدي له، كان أبي قد استأجر له شقة مؤثثة في البيت المقابل لبيتنا، يبدو أنه سيقيم طويل، أحمد كان الأخ الوحيد لوالدي كان يصغره بثلاثة أعوام، أحسست من أمي أنها غير راغبة في قدومه، لا أدري لماذا؟، لكنني أحسست بذلك، كان اليوم مدهشًا خاصة وأنني كنت في حاجة ماسة ليد أخرى خارج حدود أبي وأمي.

نسيت أن أذكر أنه لم يكن متزوج في تلك الفترة بل كان مطلقًا، والشيء العجيب الذي انكشف بعد ذلك أن والدي لم يطلب منه القدوم لكنه ألح كثيرًا لينسى حرائقه التي خلفها في الوطن.

أحيانًا نستجدي الأماكن الجديدة في بناء ذاكرة جديدة.

---

لم تتيسر في هذه الأثناء علاقة أبي بأمي، شبت مشاكل كثيرة على إثرها، كان ذعر أمي الداخلي يحثها أن تحتج ربما بلا سبب وربما لأسباب خفية فضاق صدر والدي كثيرًا إلى اليوم الذي عدت فيه من المدرسة لأجد قطرات من الدماء تسربت من أسفل الحاجب الأيسر لأمي، تقول أنه ألقي معلقة الأرز فصدها حاجبها الأيسر، خفت يومها من أبي، ألم يكن مضخة حنان لدينا، توقد تقززي إزاء منظر الدماء المتساقطة، ركضت صوب الخارج إلى حيث منال تسكن، وحين فتحت لي سألتها أين عصافير الزينة خاصتك، أرشدتني إلى حيث القفص فانتشلت بضع ريشات كانت بجانب العصفورين، وعدت راكضة نحو البيت لأضع فوق كل قطرة ريشة ملونة، سددت كل القطرات بالريشات، وبكيت في خدر أمي، بكيت كثيرًا من أجلها، وسألتها:

- -لماذا فعل أبي هذا بوجهك؟-

- -لأنه لم يعد يحبني يا صبا-.

- -لا، أبي يحبك-.

كنت خائفة من أن تترك أمي البيت وتتركني أحترق هنا وحدي، سألتها فيما أناولها بسمة تتسلق نهاية شفتي:

- -ما الذي أزعج أبي ليتصرف بهذا التهور؟-

تدرك أمي أنني أملك إلحاحًا لا حدود له، مسحت فوق حاجبها كأنها تتذكر الألم وهي تخبرني.

- -لم يكن في الطعام الملح الكافي ليستمر اليوم بلا مشاكل-.

حاولت أن أبتسم متجاوزة الأمر، أحسست أن عيني تتسلقان أعلى الجرح وأنا أخبرها بصوت خافت أن تبتسم لأنني وضعت الريشات فوق قطرات دمائها، سألتني وقتها:

- -لمَ فعلت ذلك يا صبا-.
- -لأخفي آثار جرحك يا أمي فلا تتألمين-.
لا أعرف لما اخترت الريشات لأخفي تلك القطرات الحية التي تجثم فوق أرضية الردهة، ولماذا يفسد أبي كل شيء الآن، لقد رحل بعد الغداء مباشرة، أقصد رحل بعد تلك الندبة التي صنعها في وجه أمي، جزعت وقتها منه كثيرًا وسألت نفسي:
- -هل كانت أمي محقة حينما أخبرتني أن كل الرجال سيئين؟-
تكاثرت المشكلات بينهما كثيرة في هذه الفترة لدرجة أنهما فكرا بشكل جدي في الانفصال لكن عمي أحمد أدار الأمور بطريقة أفضل، ربما لأنه تجرع يومًا من ذات الكأس مستندًا إلى علاقته السابقة التي لم تستمر طويلًا، وفي ذات مساء حين جر الحديث إلى قصة عمي، استفاض عن جرحه وهو يتنهد ببؤس:
- -الزواج على نحو كبير يليق بالحب، لم أبحث عن فرحة يذوب فيها الحب، بل كنت مؤمنًا أن البؤس معها خير من البهجة التي تأتيني من غيرها، إلى هذا الحد يجعلنا الحب حمقى؟!
حين تعرف أن قلبك يحتاج إلى يد تعانقه ستتنازل عن وقتك، راحتك، قيمتك، حواسك، صدقوني، لأن البعض يعتبر الحب إلحادًا، أنا آمنت أن الحب ليس إلحادي فقط بل قضيتي، إن أصعب ما تمنيته في الحياة أن يكون الحب غايتي ولم يصبح، لقد تجلى كأنه باقة ورد بلاستيكية بلا رائحة أو عبق، لقد كنت أحتاج إلى يدها، كأنني وقعت في حب خالق صغير، أما عنها هي لم تكن تحبني، كانت تعرف كيف تطهو السم، فطباخ السم يعرف كيف يمرره من أمعاءه دون أن يجرب الموت، ليتني صدقت المثل الفرنسي

-لا تصدق الطاهي-، حينما عرفتْ أنني عقيم وغير قادر بصورة كبيرة إلقاء نطفة حية في خدر أمومتها انسحبت بكل هدوء عني، لقد جلبت عليها كثيرًا بحزني، لكنني وأخيرًا أدركت أن انتقاص كرامتي لن يأتيني بها، لقد كانت شهيتي لأن أستمر في أوجها، لكنها كانت كالجحيم الذي تحدث عنه الله، ليتها كانت ملاكًا لآتي بكلاب القرية كلها فتطرد من داخلي، أو شيطان لأنفث ثلاثًا عن يساري فتحترق وأبعثر رمادها، لكنني حقًا لا أعرف من كانت بداخلي؟-

انتهى عمي من كلامه بعدما تحدث عن تفاصيل كثيرة، مفصحًا عن ذاكرته، احتلت قصته خيالي، وتمنيت نعم تمنيت أن أصادف رجل يحمل قلبًا كقلبه.

# قلبٌ

- القلبُ بيتُ الداءِ وليست المعدة-

# -١-

رأيتك

١٧ ديسمبر/ كانون الأول ٢٠١٨
بيروت- عين المريسة
حين يلفحك الندم ستعزز للهزيمة مكانًا جيدًا بداخلك..
ذات مساء، حين أخبرتك أنني أنوي الابتعاد عن المدينة، نظرت لي نظرة تحمل حزنًا لا حدود له، وسألتني إلى أين تريدين الذهاب، أخبرتك أنني لم أحدد وجهتي، لا أحب أن أقيد نفسي بوقت ولا مكان، تعرف، انتظرت أن تصفعني، كأنني ناديت كل أصابعك نحو وجهي كصفعة أولى موجهة نحوي، أليست الصفعة الأولى درس للتفاوض مع أخطاؤنا.
لا أذكر متى التقيتك، ولا حتى أين، كل ما أتذكره حقًا أنك أتيت لتوقف حرائقي القديمة وتشعل حرائق أخرى تدفعني لئلا أنضبط في الحياة، يمكنني القول أنك حين ظهرت توقفت النهاية وتبددت الطرق السرابية التي تحيل إلى العدم.
في الوقت الذي انتقلت فيه مع عمي إلى بيروت كنت قد جاوزت الثالثة والعشرين ولا تزال في ذاكرتي قرحة لم تضمد، كان الأمر أشبه بإغلاق أبواب الجحيم على أطرافي، لقد مررت بحالة سيئة للغاية، وخارت طاقتي وانطفأت حواسي، ومضيت ببلادة وبلا مبالاة في أدغال الحياة.
لقد تقطر من رحيق الغربة عسل غير شهي، نعم، إنها سماجة الروتين التي

لا تفسر، كان وضعي مبهمًا في مدينة متحركة وسريعة كبيروت، كل شيء هنا ممتلئ بالروح والحركة، لذلك واجهت مشكلة كبيرة إزاء تلك السرعة التي لم أتعودها.

فبعدما انتهيت من دراسة القانون في حزيران - يونيو الماضي اقترحت على عمي أحمد النزول إلى إحدى مكاتب المحاماة في المنطقة، والانسحاق في دوامة العمل التي لا تنتهي، فكرة العمل بالنسبة لي لم تكن سوى جعل ساعات اليوم تمضي بشكل ممتع، خاصة في بيت كالبيت الذي نسكنه، لقد اشتراه العم أحمد من خمسة عشر عام في حي ساحلي ببيروت يدعى -عين المريسة-، انتقلنا إليه بعد رحلة طويلة وشاقة، يظهر البيت من الخارج بطابقين، الطابق الأرضي لا يسكن فيه أحد، والطابق العلوي اخترناه لنتقاسم فيه الحياة والذاكرة.

*****

عندما استيقظت اليوم كان في الحاسوب رسالة تنتظرني، تعلن عن أول أيام العمل في مكتب قانوني كما بحثت في الأسابيع السابقة، تبلغني سكرتيرة المكتب بقبولي للعمل وبإعلامي بمواعيد العمل في الأسبوع الأول لي، كنت قد تقدمت بالسيرة الذاتية لدكتور القانون أدهم الكاتب عبر بريده الإلكتروني، الذي تديره السكرتيرة كما أعلمتني في أول مراسلة بيننا، تفننت في صياغة طلب الالتحاق بالعمل دائبة على اقتناص الفرصة للعمل في مكان يديره رجل بحجم حضوره وعلمه، يعمل الدكتور أدهم أستاذًا للقانون الجنائي في الجامعة يتميز بقلة كلامه التي تربك الجميع، ومن العجيب ألا يكون رجل القانون سليط اللسان.

دخلت إلى المكتب جالسة في مقدمة قاعة الانتظار ساندة ظهري إلى

الخلف، أرتدي جونلة تقف عند منتصف ساقي، ومعطف يقاوم شتاء بيروت، استأذنتني السكرتيرة بالدخول، تقدمت إلى الباب وفي أعماقي رهبة رؤيته، كان في سنوات الدراسة الأربعة حين يتقدم على ناصية القاعة ليلقي المحاضرة يتجمد بداخلنا حضوره الذي لا يرحم.

كان جالسًا في مكتب مؤثث بطريقة فارهة، يسند ظهره على عرشه الجلدي، عن اليمين تظهر مكتبته العتيقة، وفي أقصى الغرفة نافذة عملاقة يظهر من ورائها الساحل والسماء والشمس الخافتة، كان يرتدي نظارته وبين يديه ملف قد يكون ملف إحدى قضاياه، انتبه إليّ بعد لحظات من دخولي ودعاني للجلوس عند رأس المكتب، حين دنوت منه تسربلت على شفتيه ابتسامة ساحرة، وقال فيما يتذكرني:

- -هل سبق ودرستك في الجامعة؟-

رمقته بحذر قبل أن أجيب:

- -سبق وأن أغدقت علينا من فيضك-.

ارتفع صوت ضحكته التي تكسر معها شيء من رهبته، فاجئني وهو يقول:

- -أنا الآن زميل عمل ولست أستاذك-.

التوت على شفتي بسمة حرج قبل أن أردف قائلة:

- -العفو، ستظل أستاذي المنشود، و-.

قطع حديثنا ضجة غريبة خارج المكتب أدت إلى دخول السكرتيرة بطريقة غير منضبطة وهي تهمس في أذن الدكتور على عجل وخرجت من فورها، كنت أراقب الموقف بسذاجة بالغة فلا أنا أدري أهذا طقس عادي يحدث وسيحدث دائمًا كنوع من طبيعة العمل، أم أنه حدث عارض، انتفض السيد من مكانه واستأذنني بالخروج ليرى ما يحدث، لكنني قاطعته معلنة رحيلي

والإتيان غدًا في نفس الموعد، تَفهمَ الموقف، وتقدمت نحو الباب قاطعة مسافة رحيلي، انفرج خلف الباب رجل يتبين لي في نهاية الثلاثين، يلوح بيديه في الفراغ كمن يستجدي بشيء لا يعرفه، سرقتني عيناه خلف زجاج نظارته السوداء، وشعره المتدلي على نهاية حاجبه، لقد كان غاضبًا بطريقة مقلقة وهو يقول:

- -سأدخل الآن ولن يمنعني أحد-.

أخذت السكرتيرة تطالبه فقط بالانتظار قليلًا حتى يتسنى له الانتهاء من اجتماعه قائلة:

- -لحظات فقط أستاذ يونان، لن يمنعك أحد فقط حين ينتهي من الاجتماع ستدخل على الفور-.

سرت من خلف السكرتيرة وعيني لم تكد تنظر إليه حتى استحال معلقًا بصوت خفيض تغمره السخرية:

- -يبدو أنه كان اجتماعًا طارئًا-.

خارت عيناي من صدمة ما قال، أطلقت من عيني نظرة محرجة قبل أن أقول له:

- -من ذوقك-.

نسقت خطوتي باتجاه باب الخروج غير آبهة بما قال، لم يحدث وأن تجرأ عليّ أحد بكلمة مثلما فعل، إنها وقاحة بلا شك هكذا أسميها، تطلعت إلى غضبي من سآمة ما حدث، وفكرت وأنا أتفحص قبس المصعد ألا أعود مجددًا.

- -ترى لماذا كان غاضبًا إلى هذا الحد؟-

٣١ مارس/آذار ٢٠٠٣

كانت السيارة على مشارف الوصول إلى -الحقلانية-، الظروف هناك كانت اعتيادية جدًا، لا حرب، لا رهبة، اتجهت السيارة إلى آخر الشارع واستقرت على مقربة من بيت عتيق يقع أمام نهر الفرات، لم تكن الطريق ممهدة لذلك قرر الجميع السير مترجلين إلى البيت، تقدم الدكتور محمد نحو الباب الفستقي وطرقه بضع طرقات حتى انفرج عن رجل بجلباب أبيض يضع فوق رأسه شال بدوي ويرتدي سترة سوداء، تقدم نحو الدكتور بيده وصافحه ودعاه إلى الدخول في مجلس البيت، جرت صبا ومنال حقيبتين الهندام حتى دخلتا إلى فناء البيت، أجهدتهما الرحلة قليلًا وربما كثيرًا ولكن بشكل خفي، استأذنا من أبويهما الدخول إلى الخلاء لترطيب بدنيهما المرهق، كان الرجل البدوي يدعى -سميح السالمي-، شيخ قبيلة السالمية في مدينة الحقلانية، عرفه الدكتور محمد أثناء عمله في مشفى الحقلانية من عامين تقريبًا، حينما جاءه طالبًا علاجًا لإحدى مواشيه التي أكلتها الحمى، لم يتردد الدكتور في مساعدته دون أن يبرر أنه ليس طبيب بيطري، أعطاه العلاج الضروري والذي عالج ماشيته ومن بعدها توطدت علاقته بالطبيب الذي غادر المدينة للعمل في مشفى تكريت.

أكرم سميح نزّاله كما يجب، ونصحهم بالمكوث يومين على الأقل، وسألهم ما إن كانوا ينوون البقاء في العراق لكن الطبيب أخبره عن فكرته للهجرة إلى لبنان برًا عبورًا بسوريا مستغلًا حدودها غربًا مع العراق، لم تكن الفكرة سديدة كما توقع الجميع أثناء طرحها، هذا لأن الحدود في تلك الفترة كانت مؤصدة بشكل لا يسمح لأي أحد بالمرور، استغرق التفكير عدة ساعات قبل أن يفكر الشيخ سميح بالحل قائلًا:

---

- -إن كنتم تفكرون بالمرور حقًا فلا يمكنكم المرور عبر أي حدود عربية، الحل الوحيد في هذا الوضع القاسي هو السفر ناحية تركيا، ومن ثم استقلال طائرة إلى بيروت-.

فزع أيمن مستنكرًا:

- -من الإقليم الكردي؟!، على حد علمي لا يمكن لأحد المرور عبره إلا بواسطة كفيل كردي-.

ابتسم سميح وهو يقنعه:

- -لا تقلق من هذه الناحية، لدي صديق هناك يدعى -غازي إلياسو-، سيهتم بشأنكم حتى العبور إلى تركيا من -دهوك-.

لقد فتح سميح زقاق السلام إلى العائلتين كي يعبروا إلى مدن جديدة، مدن لا تعرف الحرب ولا تؤمن سوى بالسلام.

*****

بعد يومين، عند فلق اليوم الثالث تحركوا جميعًا حاملين أمل الخروج من الحقلانية مودعين الشيخ سميح، ثمة تصحيح بسيط فيما قال، سيتحركون من الحقلانية إلى الشرقاط في محافظة صلاح الدين، ومن ثم يسلكون طريقًا بريًا إلى دهوك.

فور وصولهم إلى الشرقاط كان في انتظارهم صديق للدكتور محمد يدعى عبد الله جبور، استقبلهم الأخيرة بحفاوة كبيرة، كان منزله بدائي المظهر مؤثث باشتهاء خاص، كوّن البساط الذي افترشه في مجلسه من جلد نمر عربي، فكرت صبا في قيمة تلك السجادة التي قد تتجاوز استيعاب طفولتها حين أعلن أن سعرها حين اشتراها منذ عشرين عام تجاوز الخمسة عشر ألف دينار عراقي في فترة كانت العملة العراقية في أبهى عصورها، وتفاخر

بخنجره العاجي الذي اشتراه في رحلته للهند، تحدث عن أشياء كثيرة مر بها وأثناء حديثه قال محذرًا:

- -تعاملت مع العديد من البشر من كل الجنسيات وكل الديانات لكنني ما وجدت أسوأ من الشيعة-.

نظرت منال مباشرة نحو صبا، كان على لسانها الكثير من الكلمات التي تمهدت لتخرج، فهمت صبا ما تود منال أن تخبره بشأن الشيعة، لكنها لا تعي أنها ليست شيعية وأن رأيها الآن سيزيد الأمر سوءًا فوق سوءٍ، انتحيت صبا جانبًا وابتعدت عن المجلس، لم تكن مولعة بالقصص التي يرويها جبور ولم تكن متأهبة لمعالجة الأمر.

أقامت العائلتان عند عبد الله جبور ليومين قبل طائلة التحرك إلى دهوك، حيث استغل جبور نفوذه في عبورهم إلى الضفة الأخرى من نهر دجلة دون أي أوراق وسلمهم بنفسه إلى السيد غازي الذي كان ينتظرهم على مشارف مدينة الموصل.

حين التقى السيد غازي بهم قال بنبرة حادة وهو يحدق في وجه أيمن:

- -تعرفون أنه لا ينبغي تواجد العرب في هذه المنطقة، لكني سأفعلها فقط من أجل صديقي سميح-.

رمق أيمن أخاه بنظرة تؤكد ما قاله أثناء تحركهم مع العجوز، تنهد أيمن فيما يتفاهم الموقف وهو يخبره:

- -كفالتك كرم كبير منك، متى يمكننا المغادرة سنجعل الأمر بأسرع ما يمكن-.

تحركوا عبر طريق جبلي بسيارة السيد غازي إلى أن وقفوا أمام مسجد -حجي محمد- في تقاطع شارع -جادا برزان-.

فور توقف السيارة التفت السيد غازي نحوهم وهو يقول بإمكانكم النزول للصلاة في هذا المسجد، طأطأ كل من أيمن وأحمد رأسيهما واستجاب الدكتور محمد من فوره وهو يقول للسيد غازي:

- -بارك الله فيك، فكرة سديدة-.

نزلت صبا ومنال تبعًا للدكتور محمد إلى المسجد، تداعت صبا أنها ستنزل لتغتسل وتركت والدها وعمها في السيارة، لزما الأخوين الجلوس فيما توجهت صبا إلى المسجد بنية أخرى غير التي أعلنتها لأبيها، اعتلت درجات المسجد وتوجهت صوب المصلى، بعدها بدقيقة عادت إلى السيارة مسرعة، فتحت باب السيارة وانتشلت حقيبة صغيرة تفتش عن شالها، ودون أن تنبس بكلمة عادت إلى منال، نظر أيمن لأحمد مستفسرًا ما يحدث، لماذا أخذت الشال، لقد كان ظنهما أنها عادت لتأخذ المنشفة المجففة، قال أيمن محدثًا نفسه بصوت مرتفع:

- -أيكون ما ظنته والدتها صحيحًا؟!-

عقد أحمد حاجبيه في وجوم ثم تسأل:

- -ماذا تعني؟-

- -لا شيء قد لا يتجاوز الأمر كونه هاجسًا، ما رأيك بأن ندخل المسجد؟-

قال أحمد في ذهول:

- -ندخل المسجد!-

- -هو أيضًا بيت الله، ونحن نعبد نفس الرب-.

تفكر أحمد قليلًا ثم قال:

- -الأمر يستحق التجربة، لندخل المسجد-.

# -٢-

لقاء آخر

١٨ ديسمبر/ كانون الأول ٢٠١٨

هؤلاء الرجال مهووسون بالاعتراف..

بينما كنت أقرأ للكاتب الفرنسي ميلان كونديرا اصطدمت بسطر يقول فيه: -نجتاز الحاضر بعيون معصوبة، وأقصى ما نستطيع هو أن نستشعر ونخمن ما نعيشه. ونحن لا ندرك ما عشناه ونفهم معناه إلا لاحقًا، لما تزول العصابة عن أعيننا، ونعيد تفحص الماضي-، كأنه أرد أن يقول أننا لا نستوعب الحاضر إلا حينما يصبح ماضٍ وذكرى، هذا لأننا لسنا على القدر الكاف من الرؤية لنرى الحقيقة ونحن نمر بالأشياء في مرتها الأولى، حينما قصصت ما حدث معي في المكتب لعمي لم يعط الأمر الاهتمام الذي انتظرته بل كما أخبرني أنه لا يستحق التفكير فيه، ربما كان للرجل قضية هامة وقد استهتر معه الدكتور ولم يمنحه ما كان يجب عليه أن يقدمه له، عنصر مفقود لا أفهمه، ولماذا على أن أفهمه والأمر برمته لا يعنيني.

مر اليوم مثل بقية الأيام، وانتظرت أن تخرج الشمس من جيب الأفق لأنهمك في العمل وأهرب من سخام الواقع إلى واقع آخر، ارتفعت نغمة المنبه وسط صدح كبير للسيارات الخاطفة في الشارع، فتحت ستائر الغرفة وتوضأت من فوري وصليت قبل أن أخرج إلى عمي، أعددت لنا الفطور، تناولناه معًا، وسألني فيما كان يستعد للنزول:

---

- -هل ستذهبين للعمل اليوم؟-
- -مؤكد، تعرف بُنيّتك جيدًا لا تحب أن تعلن فشلها أبدًا-.
ناولني ابتسامة راضية، ودعا لي بالتيسير قبل أن ينزل، بعد نصف ساعة أعددت نفسي للعمل وارتديت معطفي ونزلت.
وصلت إلى المكتب في موعدي، دخلت إلى غرفة الاستقبال التي تجلس فيها السكرتيرة استقبلتني بترحاب مثير، وقدمتني إلى غرفة الدكتور الذي كان يجلس ذات الجلسة برزانته البالغة ووسامته المعهودة، حياني فور دخولي وأذن لي بالجلوس واستهل كلامه معتذرًا عما تبادر بالأمس في ساحة العمل قائلًا:
- -أرجو ألا تكوني متضايقة مما حدث بالأمس-.
حركت رأسي مستنكرة:
- -لا أبدًا يا دكتور-.
قاطعني وهو يقول:
- -مهنتنا ألا نتضايق من أحد، ربما كان أول درس جاء بطريقة سريعة لكن عليكِ أن تتقنين الإصغاء والرد ببلاغة-.
استطرد مستسهبًا:
- -لقد أخبرتني السكرتيرة عن ردة فعلك من حديث يونان الصادم، لقد كان جوابك رائعًا ومستخفًا ومهينًا له-.
كنت سأستغل مجرى الحديث لأسأله من كان هذا الرجل ولماذا كان غاضبًا بهذا الشكل، لكنه أخبرني بنفسه:
- -يونان الكاتب، ابني-.
قاطعته متفاجئة:

- -ابنك..!-

حمدت الله أنني لم أخطئ بكلمة، كان في نيتي أن أقول له أنه شخص وقح ولم يحسن أحد تربيته، حرك الصورة التي تقف على جانب المكتب وأدارها نحوي، من ثم استرسل في تأمل:

- -كنا عائلة رائعة، أول ما يثبت أننا كنا عائلة هو أن الحب كان الرابط الأقوى بيننا، توفيت والدة يونان وهو في العاشرة من عمره أثناء الحرب الأهلية في لبنان آنذاك، خطفها الموت مني فقررت السفر إلى فرنسا، الخطأ الجثوم الذي ارتكبته هو أنني أنكرت موتها ليونان فعاش على أمل اللقاء بها إلى الآن، لقد خفت أن يكون خبر وفاتها سببًا في إلحاقه بألم نفسي خاصة وأنه تعلق بها بشكل كبير، إلا أن العكس هو ما حدث، فبعد إجراءات الدفن ومراسم الوفاة أحرقت كل المستندات التي تثبت أنها ميتة، وسافرت إلى مدينة ستراسبورغ لاستكمال الدراسات العليا والدكتوراه، لم يكفّ يونان بالسؤال عن والدته فأخبرته أننا انفصلنا وبأنها قد تزوجت من رجل آخر، وبعد عشرة أعوام عدنا إلى بيروت مرة أخرى، كنت أراه متذمرًا بطريقة كبيرة فأعود وأقول له:

- -متى ستقلب هذه الصفحة وتفكر في المستقبل؟-

ترك وقتها دراسة الطب واتجه إلى دراسة الفنون، لقد كان موهوبًا مثل والدته بالرسم، لم أستطع أن أقف في طريقه لذا تركته يفعل ما يحب، أترين أن كذبة واحدة كلفتني الكثير.

لم أفلح في تعويض غيابها الكبير، بدأت تدريجيًا بالتقرب منه لكن كل محاولاتي باءت بالفشل، كل مرة أنظر إليه في حياد أتذكر تلك النار التي أضرمتها في الورق، يلفحني ندم كبير على الخطيئة التي ارتكبتها دون أن

أفكر جيدًا فيما سيحدث، كنت أظن أن اختفائها الحي سيكون أقل تعلقًا به من الموت، لكن الذاكرة لا تحرق الأحياء بسهولة.
استمر بنا الحال حتى عام ونصف من الآن، تجربة الموت ضخت بداخلي شيء من حب الحياة فقررت الزواج من أرملة سورية، جرت العادة ألا يحب يونان زوجتي، بل والأكثر من ذلك قرر أن يترك البيت، بحكم أنه ابني الوحيد استأجرت له شقة بمفرده حولها معظم فراغها إلى معرض صغير يعلق على حوائطه لوحاته وأفكاره.
قاطع الحديث فضولي مستفهمة:
- ألا يمكن أن يكون زواجك سببًا في زيادة غضبه نحوك؟!-
سهم الدكتور وقد بدت لمحة الندم تظهر على وجهه واستطرد بدوره:
- -كثيرًا ما طالبني يونان بنفسه أن أتزوج بيد أن زوجتي نجحت أن تتسلل إلى قلبه، المعضلة كانت بيني وبين يونان، لقد ترسخت بداخله الصورة القديمة لي، هو يرى أن سبب انفصالنا بأصله يعود لي، وأنني السبب الأوحد الذي رج علاقتنا-.
قاطعته مرة أخرى:
- -ولماذا لم يقتنع أن والدته متوفاة؟!-
بقي محدقًا في السقف قبل أن يسترسل:
- -ثمة أشخاص لفرط ما نحبهم لا نصدق أن يطولهم الموت، لقد كانت والدته حنونة، أغدقت أمام بخل العالم حبًا لا ينسى، لكن الظروف لم تكن رحيمة أبدًا، أتعرفين أن يونان كان سيلقى حتفه لو أنه بقي معها يومها-.
يا الله لقد نجا بنفس الطريقة التي نجوت بها، لم أشأ أن أقاطع الدكتور وأخبره بما دار معي تركته يكمل:

---

- -كنت يومها أترافع في ذمة قضية سباب تشمل طرفين سني وشيعي، كان ذلك خلال عام ١٩٩٠، كان موّكلي شيعي، نعم خاطرت حينما وافقت أن أمسك زمام القضية من الأساس، تمرنت على تسلق عواطف القاضي لأجلب القضية لصالحي، وبالفعل نجحت يومها نجاحًا باهرًا كان ثمنه قتل زوجتي-.

تنهد بحرقة ثم تابع:

- -أعترف أنني خالطتُ بين ما يجب وما لا يجب دون وعي مني، لقد كانت زوجتي ترفض الأمر برمته، وتقول أن الرابح الأكبر هو أخر المتحركين، نعم، كانت محقة، من حسن الحظ أن يونان أراد أن يرى الجلسة عن كثب، وحين انتهيت جاءني اتصال من هاتف المحكمة يشرح لي ما قد حدث، كتمت الدموع قبل أن تفضح الموقف واستقويت بكل ضعفي وتركت يونان مع أحد زملائي وعدت للبيت الخرب بمفردي وقد فتحت عليه أعيرة الرصاص من كل جانب اخترقت إحداهن صدرها وتركت الحياة.

كانت الشرطة تملأ خلجات المكان والكثير من الناس تلتف حول المبنى مندهشة مما حدث، كانت عملية اغتيال من الدرجة الأولى، وإذ بشخص انتبه لي من بعيد، تقدم نحوي مبتسمًا وهو يقول مستهزأً:

- -أظن أن زوجتك مشتاقة لابنها الآن-.

كان تهديدًا صريحًا، حاولت أن أستغل نفوذي حتى لا يتسلل الخبر إلى الجرائد، تداخلات كثيرة ساهمت في سرية الخبر، عدت إلى زميلي واختليت به شارحًا الموقف، نصحني بالسفر قائلًا:

- -لا يمكنك البقاء هنا، يجب أن تغادر لبنان في أقرب وقت-.

سافرت وقتها متجهًا إلى ستراسبورغ، حاولت أن أتصل بأحد أساتذتي في

الجامعة لأستغل وساطته في منحة الدراسة هناك، وبالفعل قدم لي يد العون، وساعدني حتى بلوغ الدكتوراه، كانت قد مرت أعوام كثيرة لتمحو اسمي من ذاكرات الذين يلاحقوني، عانيت كثيرًا وأنا أقنع يونان بالنزول مرة أخرى إلى بيروت لكنه وافق بعد محاولات عاتية من تجاهي، لم أدرِ كيف أقول له وكيف أقنعه أخيرًا أن علينا العودة وقد أحسست بمدى الحرقة التي هو فيها، عقله الذي كبر وتضخم بداخله الألم والحزن تجاه مدينة ابتلعت أمه بطريقة غير عادلة كيف نؤول إليها مرة أخرى.

فجأة، اقتنع بكلامي، كان ذلك قبل عشرة أعوام من الآن، استطعت أن أتقدم للعمل في الجامعة بعد عودتي مباشرة، والتحق آنذاك بكلية الطب التي لم يستمر فيها طويلًا، سنوات وأنا أحس بالذنب، سنوات وزئبق قلبي يغلي بلا توقف، لكن الموقف حتم عليّ أن أنكر وفاة والدته-.

تخيلت مع قصته الدكتور ويونان الحواجز التي انتصبت في وجهيهما معًا، كيف يتحمل طفل فكرة حياة أمه مع رجل آخر غير أبيه ولو كذبًا، أعتقد أن خلافي مع الدكتور جعلني في صف يونان، شعرت بصعوبة فهم جزء من القصة فغلبني فضولي وأنا أسأله:

- -ألم يتزوج يونان؟!-

طرق بمؤخرة القلم الرازح على يمينه مرتين ثم زم شفتيه قبل أن يقول:

- -لقد وضع يونان المرأة في الخانة الخاطئة، استعمل النساء ليثأر من العائلة التي تحطمت في طرفة عين، تعرف إلى زوجته الأولى في سنوات الجامعة، وأخطرني فقط أنه تزوج، تخيلي، قلت له من هي، وبنت من، ولماذا لم تعرفني بالأمر، أسئلة كثيرة انتهت بلا جواب وطلقها بعد عام ونصف تقريبًا، في الوقت نفسه سألته عن السبب أخبرني ببرود:

- -كل النساء يتشابهن بعد الليلة الأولى من الزواج-.

---

هكذا، أصبح مطلقًا قبل أن يكمل الثانية والعشرين، فقد خلال تلك الفترة أخر الخطوط التي كانت تربط بيننا، صب تركيزه في فنّه، وعكف على الرسم، وتفوق فيه، كنت أراقبه من بعيد، لا يمكنني أن أنسى أنني أنجبت طفلًا عنيد مثل يونان.

عادت الأمور بيننا كسابقه عند بلوغه الثلاثين، حينها أقنعته أن يتزوج مرة أخرى، لكنه صمم ألا يعاود التجربة من الأساس، كأنه تعقد من النوع كله، لم يكن قد مر عامين حتى وافق أخيرًا على الزواج من فتاة لرجل أعمال مرموق، كنت سعيدًا جدًا بينما قرأت على ملامحه شيئًا يشبه الفرح، لم تكن سعادة حقيقية، لم تكن السعادة التي انتظرتها لأجله.

أغفلتنا السنين ومضت كأنها حلم، كان قد مر على زواجه خمسة أعوام وبدت الندفات البيضاء تتسلل على رأسه كما لاحظتي، واحتدت علاقتهما مجددًا وعاد كابوس الطلاق يفرض نفسه وفي لحظة حاسمة طلقها، عاد لي يومها إلى البيت، سألته:

- -ما بك؟-

أخبرني بجسارة:

- -سأقيم معك قليلًا-.

سألته:

- -هل حدث شيء بينك وبين زوجتك؟-

أجاب بمضض:

- -هل ترى أن الطلاق شيء مقدس بالنسبة لي؟-

فهمت من لكنته النادمة أنه طلقها بعدما أنجب طفلة منها وترك في أحشائها طفلة أخرى، قابلت في هذه الفترة زوجتي، أفضيت حياتي نحو

بداية جديدة وقررت الزواج منها، فهمَ يونان أن زواجنا حاجزًا جديدًا يحط بيننا، لم يبد شهمًا أبدًا في قراره مع زوجتي، وقبل أن يسعى إلى ترك البيت، كان الرد عنيفًا من زوجته أن أحرقت معرضه بكل لوحاته التي رسمها مع السنين، استأجرت له شقة أخرى، عاش فيها الستة أشهر الماضية، وبالأمس كان قد جاء بكل غضبه وجنونه ليعلمني أن زوجته تتهمه بخطفه ابنته والمثول أمام المحكمة في الأول من كانون الثاني/يناير القادم-.

يا ربي، لا أصدق، لماذا العالم سيء إلى هذا الحد.

قطع حديثنا السكرتيرة وهي تقول بلطف:

- -السيد يونان ينتظر في الخارج، ويطلب الدخول..!-

جرت في جسدي قشعريرة غريبة لم أفهمها، نظرت إلى وجه الدكتور وهو يأمرها بأن تدعوه للدخول.

٣١ مارس/آذار ٢٠٠٣

ركب الأخوان الأمور بحذر، وما هي إلا ولحظة وقد ولجا إلى المسجد، تسللا خلسة خلف الظهور، ووضعا حذاءيهما في رف أقصى المسجد ودخلا نحو ساحة الوضوء، لم يكن أيمن يعرف إلى أين يذهب، تبعه أحمد في صمت، خطط أيمن للدخول كي لا يثير شكوك من معهم إن كان لن يصلي، حتى أنه لا يملك المبرر الكاف إن سأله أحد عن سبب بقائه هو وأخيه في السيارة، أشار بسباته إلى أحمد لدخول الخلاء، تكلم معه أن يبقى فيها مدة صلاة الآخرين، حتى أنه ورغم رغبته الكبيرة للصلاة لا يجب أن يرى أحد طقوسه حتى لا ينحدر في خانة المرتدين ويحلل قتله، هكذا استقرا على المكوث حتى ينتهي الجميع من الصلاة.

---

كانت صبا ومنال في الخلاء المجاور لهما، خرجت كل منهما إلى حيث مكان الوضوء، وفتحت كل واحدة صنبور الماء الذي أمامها، وقرأتا البسملة قبل أن تردف منال لصبا:

- -أرى أنكِ قد حفظتِ الوضوء أكثر مني-.

تسلل صدى الكلمة إلى مرمى سمع كل من أيمن وأحمد، سقطت بإيقاع الصدمة، لم ينبسا بكلمة وآثرا الصمت وهو ينصت لما ستقوله صبا.

- -نعم، الحمد لله، الفضل بعد الله سبحانه يعود لك-، أجابت صبا.

كما ليبدأ فاجعة جديدة، فرت الدموع من عينيه بشكل تلقائي، هل اعتنقت الفتاة الإسلام دون أن يدري، بدأت حركة صبا ومنال تتجه صوب المصلى، لازمها صمت أيمن وأحمد اللذان راقبا الموقف دون قصد، لقد تأكدت لأيمن شكوك زوجته، حينما أخبرته تلك الليلة التي عادت فيها صبا معلولة من بيت منال، لقد أخبرته أنها رأت منال تصلي ومن خلفها بأقل من خطوة صبا حين تداعت ألمًا بخاصرتها، تألم من الموقف كثيرًا، لقد غيرت فتاته عقائدها دون أن يلاحظ ذلك، أجرى خطى ثقيلة فيما يخرج من الخلاء وفتح صنبور الماء وأسقط رأسه أسفله، أحس بخيبة كبيرة في تربيته لفتاته، بعد دقيقة تبعه أحمد في ذهول، قد لا يعلم كيف يخفف وطأة ما حدث على أخيه، لكنه أردف قائلًا:

- -تعرف أن الصغار يسعون دائمًا لتجربة الأشياء المختلفة، هون عليك، ستكون الأمور على ما يرام، ثم أننا بعد أيام من الآن سينقطع دابر علاقة الفتاة بالسودانية، وسيصبح تطويع صبا أمر بالغ السهولة-.

أثلجت كلمات أحمد قلب أيمن، ثم قال بتأثر بالغ القسوة:

- -لا يمكن أن تكون صبا أسوتي-.

---

هز أحمد رأسه ثم استطرد:
- -لا يجب أن يلاحظ أحد أننا عرفنا، حتى لا يحرموك من صبا، لن يسمحوا لها أن تعيش مع أب غير مسلم-.
تفهم أيمن ما قاله أخيه، لم يسبق له وأن تلقى خبرًا لم يصمد أمامه بهذا الشكل، انتظر قليلًا ململمًا أفكاره وهدوءه، ومن ثم خرج من الباب الخلفي للخلاء نافضًا بقايا الماء عن رأسه وساعديه، انتظر حتى تخرج صبا ولم يعطِ أي نظرة نحوها، لا يستطيع أن يستأنف مرحه معها بعدما صدمه ما سمعه الآن.
جلس بالقرب من السيارة يسترد أنفاسه وأفكاره، كان قد عاد السيد غازي وقد خرج جميعهم من المسجد، ناضل حزنه بابتسامة عابرة لا معنى لها، ومن ثم سأل السيد غازي بلطف:
- -إلى أين يجب أن نذهب الآن؟-
لم يفكر السيد غازي كثيرًا قبل أن يجيب:
- -ستبيتون في فندقي حتى الصباح، وبعدها سنتحرك إلى أطراف دهوك لتعبروا إلى الحدود التركية-.
تحركوا جميعًا برفقة السيد غازي، وجههم إلى الفندق الذي لا يبتعد كثيرًا عن المسجد، طريق الفندق لا يختلف كثيرًا عن طريق الحقول بأشجاره الكثيفة وأزهاره المتشابكة النافرة، توجهت صبا إلى أبيها متسائلة:
- -أبي، لماذا لا يوجد حرب هنا؟-
نظر غازي إلى أيمن بحدة قبل أن يجيب صبا كأنه ينتظر ردة فعله:
- -لأن هنا أرض السلام يا صبا-.
عرف الجميع مدى نفاق الإجابة، لكنه مطلوب الآن.

---

ما لبث الجميع أن تحركوا حتى استقروا أمام بيت يشبه من الخارج التحف، يلفه النبات من كل صوب، شجعهم المنظر إلى الدخول باطمئنان، سبقهم السيد غازي بالدخول واستأذنهم من بعده، ذهل الجميع لفخامة الرواق الذي عبروه حتى الغرفة المخصصة لهم.

دارى أيمن حزنه نحو صبيته، وكتم بقلبه ألمه المطروح، لاحظت صبا مدى تغير أبيها الذي لم تعهد منه أن يصل معها إلى هذا الطور من الصمت، تركته وانصرفت إلى الغرفة التي أعدها لهم السيد غازي، فكرت فيما كان رآها وهي تصلي، ودارت شكوكها حول علمه بالأمر، هي نفسها لا تستطيع أن تشتكي من أبيها لصديقتها، ماذا ستقول لها.

معرفة أيمن بالأمر كان جزء محتوم لا يمكن تغييره، سبب وعيه بالأمر أذى كبير ناحية صبا، حاول اجتناب الحديث معها بقدر الإمكان، جلس عند المغيب في باحة البيت، فضّل الجلوس بمفرده والإتيان بذاكرته إلى أشياء لم تستمر، تصور حياته بعيدًا بعيدًا عن الحروب، بعيدًا عن الأفول الذي يلتهم منافذه السخية، ويلخص علاقته بالحياة بكل أذى، رفع رأسه محدقًا فيما حوله في لحظة تأمل، لاحظ من بعيد صورة مضببة للدكتور محمد مع سيدة وربما رجل، الضوء لم يكن كافٍ ليرى بشكل أوضح، دقق أكثر وهو يشق غمام الحشائش بجفنيه، نهض من مكانه وحاول الاقتراب إلا أن سياج النباتات لم تعطه فرصة التقدم أكثر، كل ما أيقنه أن التي تقف أمام الدكتور محمد سيدة وليست رجل، لحنَ عن وقوفه وعاد إلى مجلسه بعدما خابت عزيمته للرؤية، لم يفكر في الخروج من البوابة والتقدم بنفسه ليرى ما يحدث، فقد أيقن أن الأمر من بدايته تطفلًا، بعد دقائق دخل الدكتور محمد ومسد على كتفه قبل الولوج إلى الداخل، رنت في رأسه فكرة

الدخول، ولم يكن في دماغه وقتها سوى موقف صبا، آه يا صبا.
مع المساء، أتى السيد غازي بصحن كبير من الطعام على نحو كانت بطونهم خاوية إلى حد تجاوز الجوع، تناول الجميع الطعام في نهم مبالغ، كأن يد خفية تسابق أياديهم في الأكل، لم يتشبث أحد بالذوق المطلوب عند تناول الطعام، فور انتهائهم من الأكل شكروا السيد غازي، وحين سألهم عن مدي طِيب الطعام أردف أيمن مازحًا:
- -جدنا ماركيز يقول (عند الجوع لا يوجد خبز سيء)-.
ضحك الجميع إلا السيد غازي الذي تعامل مع الكلمة من منطلق آخر، احتلت لغته فظاظة وهو يقول:
- -عند الجوع قد يتخلى الإنسان عن مبادئه من أجل أمعائه-.
أحس الجميع بمدى الإهانة التي تشع من كلامه فرد أحمد متجاوزًا حدة الكلام:
- -كان الطعام رائعًا سيد غازي-.
استيقظ غازي من أفكاره موجهًا الكلام إلى أيمن:
- -ماذا كنت تعمل قبل فراغ الحرب؟-
أخذ أيمن فكرة الحديث معه كنوع من تلطيف الموقف:
- -كنت أعمل شيف مأكولات سورية-.
تفقد غازي فغر ذاكرته قبل أن يقول:
- -أتخيل أنه قد مر بهذه المدينة رجل كان يعمل شيف مأكولات سورية، على ما أذكر من عشرين عام، كان ذلك ساعة حربنا على إيران-.
ضبطت صبا تركيزها لحديثه وحدثت نفسها متسائلة:
- -أيعقل أن يكون المعنيّ هو جدي؟-

# -٣-

قضية

أحيانًا نستسلم للهزيمة لأننا نصبح أشهى ونحن ضحايا.
دخل يونان المكتب واستلقى على الكرسي المقابل لي واضعًا ساقه اليسرى فوق اليمنى، لا يأبه بمن يجلس أمامه، أدرت وجهي بحيث لا يلتقي بوجهه، بعدي لم أنس ما تبادر منه صباح أمس، أزدرد ريقي بتثاقل، وأنا أسأل نفسي، ماذا كان ينوي الدكتور حين طلب دخوله ولِمَ لم يسمح لي بالانصراف، قلبي يحدثني أن أمرًا غريبًا سيحدث الآن، مضى علينا دقيقة قبل أن يبدأ يونان في الحديث متنهدًا:
- -بولينا اتصلت بي مساء الأمس-.
إذن زوجته السابقة اسمها بولينا، انتصب انتباه الدكتور نحوه وهو يسأله:
- -فيما تحدثتما؟-
- -المخبولة تساومني لتتنازل عن القضية!-
تساومه على ابنته، شيء غريب، ترى ما الذي تريده من فنان من شدة هوسه بالحرية أنفق كل ما لديه.
أشعل الدكتور سيجاره بقداحته المذهبة ثم أردف قائلًا:
- -تريد مال؟-
- -لا، بل قضية-.
- -قضية ماذا؟-

- -والدها متورط في قضية، وتريدك أن تدافع عنه-.
أصرّ الدكتور باستحالة الأمر، نظرت لوجهه وهو يشتعل احمرار ويغلي من الداخل، دس سيجاره بحنق في مطفأته وهو يقول:
- -لا يمكنني أن أفعل ذلك أبدًا-.
نظرات يونان يملأها توسل عميق، أنزل ساقه اليسرى واقترب بجسده من نهاية المكتب، زمّ شفتيه:
- -أعدك أن أنس ما فعلته بأمي لو فعلتها من أجلي-.
لم أستطع أن أتحمل الأمر، فجأة، فاضت الكلمات من فمي وبتلقائية تكلمت:
- -أنا سأفعلها أستاذ يونان-.
نظر الدكتور لي بدهشة كبيرة فيما ظلت نظرات يونان عالقة إلى وجه أبيه، وأنا أتابع الحديث:
- -في أي من الحالتين ستكون هنالك قضية، سيكون ثمن الأولى أغلى من الثانية، ففور تنازل السيدة بولينا عن قضيتها المتعلقة بالسيد يونان ستصبح وطأة القضية أبسط، حتى وإن خسرناها سنوفر الوقت الكاف لردع أي شكوك ضد السيد يونان نحو اختفاء فتاته، أما لو تركنا مسار القضية الأولى يمضي فمن يعلم ماذا ستفعله تلك السيدة بالفتاة، فقد تأخذها إلى خارج البلاد عن طريق البر أو الملاحة، فلا يكون من السهل معرفة إن كانت غادرت أم لا، ووقتها ستوفر كل طقوس الإدانة نحو السيد يونان ليدفع ثمن جريمة لم يرتكبها-.
بدا على وجهيهما ذهول واضح مما قلته للتو، لم يستطع يونان أن يتحاشى ما قلته فالأمر يتعلق به أكثر من أي أحد في الغرفة، رمقني بنظرة لم أفهمها

إن كانت شكر أم سخرية، وانتظرت أن يتحدث الدكتور الذي حك رأسه بسبابته قبل أن يقول:

- -صبا محقة-.

أحسست بعيني يونان تتطلع نحوي فور أن نطق الدكتور اسمي وكأن صوته الداخلي يتهجى اسمي مجددًا، بعد زمن قصير تابع الدكتور:

- -حين تسألك بولينا عن رأيي في القضية قل لها أنني لازلت أفكر في الأمر، لا تعطها جوابًا جازمًا بأنني وافقت-.

هزّ يونان رأسه طائعًا لما قيل من أبيه، ثم استأذننا في الخروج، وقبل أن يتجاوز حدود الباب لفّ رأسه للخف مرة أخرى ثم نظر نحوي وقال:

- -شكرًا آنسة صَبا-.

بالأمس وقعت تحت وطأة سخافته واليوم أصبحت في صفّه، غادرنا بعدما أطلقت ابتسامة مصاغة لشكره، خطفني سؤال الدكتور:

- -أرأيتِ؟، في لحظة عاد للحياة كطفل-.

- -مشكلة يونان أنه لا يعرف كيف يقطب جراحه-.

- -بل مشكلته أنه لا يعرف كيف يتخلص منها-.

لقد اعتاد أن يكون ضحية، وأقنع نفسه أن الحياة بكل ما فيها متواطئة ضده، لقد احتاج إلى قلب، قلب يدله إلى الحياة التي تنتظره.

الحياة تصبح حياة حين تتخلص من جروحك وتمضي من جديد في ذاكرتك.

ستكون من اليوم قضيتي، هكذا وجدت نفسي في أول قضية أعمل عليها، لا أدري لم جررت نفسي لهذا المأزق وأنا أتطوع للأمر، كان يمكنني الحصول على قضية أبسط في بداية مشواري، لقد أثرت فيّ طريقته حين تحدث عن أمه، صُفرة الألم التي شحبت ملامحه جعلتني أوافق بلا تفكير.

---

# -٤-

مكالمة

في الوقت الذي تحتار فيه من أمر ما تأكد أنك ستختار الأقرب لقلبك.
في المرة الماضية حين انسحب من المكتب كانت أفكاري مدجّنة لصالحه، كانت تلك بداية وشائج التعلق التي تربطني بيونان، ماذا تغير لأتغير بهذا الشكل، لماذا كلما أتيت إلى المكتب أهتم بالاستماع إلى تفاصيل حياته، ولمَ أره رجل بكل خرابه مميزًا، شعرت أنه غطس في أعماقي ولم يطفو.
كنت في غرفتي سارحة حين طرق عمي الباب مستأذنًا بالدخول، لم أنتبه لطرقاته إلا بعد أن ناداني بصوت أكثر صخبًا، لم يسألني عن شيء، جاء ليطمئن ما إن عدت من العمل أم لا، جلس أمامي بانسيابيته الحنونة، ومسح فوق رأسي، وأخذني في أحضانه، اعتاد أن يدللني بحنانه الدفين بعدما فقدت أبي، أصرّ ألا يتزوج وتفرغ لرعايتي بحرص، لم أستشعر في عهده اليتم أبدًا، فلقد استأصل معي جراحنا الغريرة، وقرر أن نعيش معًا في بيت واحد الذي صك ميثاقه باسمي.
فتحت عينيّ نحوه وأنا أبتسم ثم أدبر سائلًا:
- -كيف حال عملك؟، أرى أنه شغلكِ عني-.
شُلّت الكلمات من على لساني، لوحت بإشارة من رأسي مفادها -لا-.
تابع وهو ينظر إلى سقف الغرفة:
- -لقد صمدنا معًا إلى أن كبرتِ يا صبا، ولولا وجودكِ في حياتي لما تمنيت الحياة بعد وفاة شقيقي، لا أعلم كيف مرت الخمسة عشر عامًا الماضية،

إلا أنني أراكِ أمامي تنضجين وتكبرين لأكبر بمحاذاتك، لا أنكر يا صبا أنني أشعر بالفصل الأخير من حياتي يقترب-.

قاطعته ودموعي تلتهب فوق أهدابي:

- -شششش.. لا يا عمي، لا يمكنني أن أتحمل عبء الحياة دونك، أنت من أعادني للحياة، بل كنت أنت الحياة-.

تأثر من كلامي فانهمرت على خديه عبرات لم يستطع أن يصدها أمامي، احتضنته بقوة، لقد أحسن رعايتي على نحو يفوق واجباته ودوره نحوي، أتخيل أنه كيف ضحى بأجمل لحظاته من أجلي، وكيف دأب بدرع شبابه على حمايتي.

بعد أن أخذتْ نوبة الحزن وقتها، أخبرني أنه سيأجر الدور الأول للبيت، لم أجد مانعًا لذلك، خاصة وأنه سيوفر دخلًا إضافيًا لنا، أحسست أن عمي لن يعمل الفترة القادمة، خاصة وأن صحته بدأت تنتكس بشكل ملحوظ، ربما لهذا السبب قرر تأجير الشقة السفلية، وأخبرني أن أطبع إعلانًا ملصقًا يحمل رقم هاتفه، وأن أخبر أحد المتجولين بلصقه على الحوائط المخصصة للدعاية، وأن أشير بذلك إلى مكاتب التأجير في ضواحي بيروت، بعدها أغلق باب الغرفة واستكان إلى غرفته المقابلة لي.

*****

في اليوم التالي، رحت للمكتب بحيوية مفرطة، كان الدكتور في عطلة الأسبوع خاصته، ولم يكن في المكتب سواي أنا والسكرتيرة، أمرتها أن تحضر من أجلي القهوة في الأثناء كانت قد دلتني على حجرتي في العمل، وأخبرتني أن أتصل بالدكتور فور وصولي.

رفعتُ سماعة الهاتف وكونت الرقم المسجى أمامي جاء صوت سيدة تقول:

- -منزل الدكتور أدهم الكاتب، من المتصل؟!-
أجبتها من فوري:
- -صبا مع حضرتك من المكتب، ممكن أتحدث إلى الدكتور؟-
بعد أن قالت -لحظات-، تلقيت صوت الدكتور وهو يسعل بضع سعلات صباحية، أردف بعد التحية:
- -بولينا ستأتي إليكِ بعد قليل، استخدمي الدفتر الأزرق في تدوين كل آرائها عن القضية، وسأتصل بيونان ليأتيكِ الآن-.
تفرست أدراج المكتب حتى سقطت عيناي أخيرًا على الدفتر الأزرق، لم ألبث أن بحثت عن القلم حتى وجدت باب المكتب يندفع ببطئ، أحسست ببرودة الطقس تتسلل فجأة إلى الداخل، رفعت رأسي وأنا أنفض سطح الدفتر، في البداية ناوشتني فكرة قدوم متظلمين إلى المكتب ولكن أليس الوقت مبكرًا على ذلك، وكيف يحمل كل تلك الجرأة ليدفع الباب بنفسه، أغمضت عيني في محاولة استعادة جزء من التركيز، الذي تناثر تحت وطأة الغبار، استقام رمشاي نحو رجل يسند ذراعه اليسرى على محيط الباب، ومن ثم انفجرت من فمه ابتسامة حالمة قبل أن يردف قائلًا:
- -ألن تدعينني أدخل؟!-
تخلف بعد ابتسامته المجنونة لسعة خوف بداخلي، سددت نظراتي نحوه وأنا أدعوه للجلوس على الكرسي:
- -تفضل سيد يونان-.
نظرتُ إلى ساعتي، لا يعقل أن الدكتور قد أنجز اتصاله بهذه السرعة، لابد أنه سبق الاتصال وجاء إلى المكتب قبل الجميع، تُرى لماذا تعمد أن يأتي في مثل هذا الوقت المبكر.

جلس على الكرسي بأريحية كبيرة وتنهد قبل أن يقول:
- -صبا-ح الخير-.
كأنه تعمد أن يؤخر حرف الحاء ليستنطق حروف اسمي، هكذا أحسست.
- -صباح النور-. علقت، وأنا أجلس.
- -لا أعرف كيف أشكرك، أو كيف أعتذر منكِ على سخافتي؟-
- -الأمر لا يستحق كل هذا العناء للشكر أو الاعتذار-.
- -القلب الطيب لا يملك سوى المغفرة-.
لم أعتد أن يمدحني الغرباء، ثم أنه لا يعرف شيء عن قلبي لينعته بالطيب أو بالذميم، انفجر الدم في وجهي خجلًا مما قال، طأطأت رأسي ثم شكرته. المرة الوحيدة التي أرى نفسي بهذه العشوائية هي الآن، لا أستطيع أن أشمل بعثراتي، حركاتي التلقائية ستفضح العبث الذي أنا عليه، أنقذتني السكرتيرة حين تقدمت نحوي بكوب القهوة، سألته:
- -أتفضّل المشروبات الساخنة في الصباح؟-
في تلك اللحظة، حرر يديه بكل وقاحة نحو قدح القهوة خاصتي ولثمه بشفتيه، قال بعدها:
- -أفضّل القهوة-.
مرغمةً، نظرت إلى السكرتيرة التي تكبح ضحكة في أحشاءها وأمرتها بكوب آخر، كان يونان يشرب القهوة بهوادة مفرطة، يطمئن للشراب كأنه من اختياره، أحسست بأشجانه حين فاءت من عينيه لمعة حزن، رفع يديه نحو شعره وهو يقول:
- -أنت محامية حديثة التخرج؟-
لا أعلم هل أراد معرفة سني بهذا السؤال، أم أنه بوابة لحديث طويل يريد

أن يفتعله، لم أجد حرجًا في أن أجيب:
- -نعم، حزيران/يونيو الماضي انتهت علاقتي بالدراسة-.
- -أخمن أن عمرك لا يتجاوز الثانية والعشرين-.
- -بل ثلاثة وعشرين-.
- -هل أخفقتِ في إحدى سنين الدراسة؟-
- -ليس إخفاقًا، الأمر تجاوز طاقتي، لم أدخل امتحانات الصف الخامس-.
- -لِمَ إذن؟-
لم أجد مانعًا من الحديث خاصة وأن فاقتي إلى شخصٍ يسمع حكايتي في أوجها، تكلمت معه في لحظة ضعف عن كل ما مررت به:
- -لقد كنت حينها في بغداد، أليست بغداد رائعة؟-
- -بلى!-
لم أتعود أن يسمعني أحد، لم أجد القلب الذي ينفرج لي ويحس بآلامي، أنصت يونان إلى حكايتي وانتهز حديثي الطويل في طرح الكثير من الأسئلة. قطع حديثنا اتصال بولينا التي قررت أن تؤجل مجيئها للغد، بعدها تابعت:
- -كنتُ أكبرُ من الحرب في تلك الليلة-.
- -بل كنتِ أنتِ الحرب-.
براءتنا التي قتلتها الحروب بأيدي من يدعون للسلام، أليس العار أن نحث الناس بما لا نملك، أحلامنا التي اقتنصها الموت، وجردها الرصاص، كل ما حدث لنا من أشياء سيئة وقعت دون أي ذنب، علقت له بحنق:
- -تعرف يا يونان، عفوًا سيد يونان أحس أحيانًا أنني لعنة-.
ابتسم قبل أن يردف قائلًا:
- -أفضّل أن تقولي يونان-. بعدها تابع:

- -لَمَ تقولين أنكِ لعنة؟-
- -لأن الأشياء التي أحبها تخفق من أن تستمر معي-.
- -ربما هو سوء حظ لا أكثر-.
- -لا أؤمن بالحظ-.
- -وأنا لا أؤمن باللعنات-.
كان عليّ أن أبتلع دموعي قبل أن تظهر أمام أحد.

*****

ليلتها، اتصلت منال عليّ لتخبرني أنها انتقلت إلى مدينة -الدبة- في الشمال من -الخرطوم-، بعد رحلة التعلم التي أنهتها في مصر، منال التي عانت كثيرًا إزاء التصرفات التي واجهتها فور وصولنا إلى لبنان، فلم يتعامل البشر معها ها هنا بإنصاف، فكان واجب الضيافة معها مختلف، كما كان يجب أن يقدم نحو فتاة بطيبها وقلبها، سمعت من ينعتها بزجاجة كولا متحركة نكاية عن بشرتها السمراء، والبعض تمادى عليها بلفظ عبّدة، لقد قضت شهرين على هذا الحال دون تغير، إذ أن التصرفات المُهينة قد أطاحت بآمال استمرارهما في لبنان، فقرر الدكتور محمد العودة إلى السودان، لم يألف المكان بسبب تلك الفظاظة السيئة.
لم يمكثا طويلًا، فحزما كل أمتعتهما وذكرياتهما على متن حقيبة لا تتسع لدموع منال، ودعتها وكأنني أودع أملي الأخير في صداقة وحب أحب، تعاهدنا أن نبقى على تواصل مستمر لا يقصه موقف أو نسيان، ستبقين يا منال في قريحتي التي أنضج بها.
كان اتصالها مختلف هذه المرة، صوتها جاء متغير عبر سماعة الهاتف، كأن غصة تكتم أنفاسها، سألتها:

- -ما بكِ يا منال؟!-
لم تجبني، انفجرت باكية كأول مرة شاهدتها تبكي في سراديب الحرب، لم تسنح لي فرصة سؤالها مرة أخرى، جاء صوت والدها من بعيد فأغلقت المكالمة من فورها، قلقت كثيرًا حيال هذا الاتصال الذي لم يفد بشيء سوى أنه رفع سقف قلقي نحوها، أخشى أن يصيبها مكروه.
لم تمر سوى دقيقة قبل أن يعاودني اتصال من ذات الرقم، الذي أجرت منه المكالمة منذ قليل، كان الدكتور محمد على الطرف الآخر من الاتصال، بعد أن تبادلنا التحية حول الكلام بصيغة جادة وهو يقول:
- -صبا، عليكِ أن تعرفي أمرًا في غاية الأهمية-.
انقبض قلبي فجأة، واضطرب تنفسي، ترى ما الذي يريد أن يخبرني به، وسط هذا العبث الانفعالي الذي غمرني قلت له:
- -أسمعك يا عمي-.
سقطت سماعة الهاتف.

١ أبريل/نيسان ٢٠٠٣
-تخيل أنّ العالم مثل الدمية وأنّ أصابع الله هي من تحرك الجميع-، علق السيد غازي قبل أن يستمر في حديثه عن حكاية الرجل الذي كتب هذه المقولة على سقف مطعمه تابع بعدها:
- -كان الموت هو أول زوار العراق في هذه الفترة، بسبب الحروب التي طمست أمان البلاد وهدوءها، كنت وقتها محض موظف أعمل في الضرائب، ولم تكن قدماي قد وطأة هذا المطعم ناحية جنوب الضيعة، علاقتي بأصحاب الأملاك التجارية لم تكن وطيدة فطبيعة العمل تحتم عليّ ذلك،

وقتها كنت قد أنشأت فندقًا صغيرًا يناسب الغرباء والمهاجرين إلى المدينة، كان أحد نزلاء الفندق رجل سوري يملك هذا المطعم أقام فيه هو وزوجته الأوربية، حينما علمت بأنه طباخ ماهر طلبت منه أن يعمل معي في الجزء الخاص بمطعم الفندق لكنه رفض، قذفتني مهارته في الطعام أن أتعاقد مع المطعم الخاص به، شراكة منفعة نظير أن يقدم الفندق وجباته من المطعم، أصدقائي قالوا لي -ستقلب علينا الدنيا بفعلتك هذه-، لم يكن أحد يحبذ ها هنا العمل مع الغرباء، تجاوزت شراكتنا طور النمو، فزوار الفندق تزايدوا مع أطباقه الشهية ذات المنظر الجذاب، لقد كان ينظمها بعناية بالغة حتى أنني أذكر أنه يبرر ذلك بقوله : -اللقمة الأولى تأكلها العين-.

تكورت صبا من الحكاية التي يسدلها السيد غازي عن الرجل السوري، مؤكد هي ترى فيه جدها، فكل ما تذكره من حديث أمها عنه يتطابق مع قول السيد غازي، كل هذا التفاني والحكمة جاء من رجل يكاد يكون جدها، تابع السيد غازي:

- -شبت براثن الحرب في أرجاء البلاد، وتدهورت أحوالنا، توقف عملي في الضرائب وأصبح الفندق خاوي إلا من أثاثه، حينها طلبت من سرمد أن يقرضني مبلغ من المال أقضي به ديوني لحين اجتياز المأزق، أقرضني مبلغ كبير وبعدها سافر إلى بلاده، هذا الكرم الذي لاصقه بثقة جعله يكبر في عيني، حينما عاد إلى المطعم بعد عام تقريبًا من اندلاع الحرب كنت قد جهزت له أكبر الغرف ووضعت فيها متاعه لأستقبله بالحفاوة التي يستحقها، هذه الأشياء الصغيرة نعرف من خلالها القيمة التي يرانا بها الآخرون، وحين عاد، أجبرته الأوضاع أن ينهي كل أعماله وينهي جولته في التغرب ويعود إلى وطنه، في الأثناء اضطربت الأمور بين العراقيين العرب

والأكراد، وانتشرت أنباء أن شريك سرمد العراقي وضع مطعمه في حيازة الجيش، ليصبح ثكنة آنذاك لقتل الأكراد، تكثفت جهود مواطني المنطقة حول هدم المطعم، واختاروا الطريقة الأسرع لذلك من خلال وضع عبوة ناسفة تنفجر فور تجول مترجّل بالمطعم، كنت أرى في هذا إرهابًا لا يختلف عن نية الجيش نحونا، لم أعلم بأمر وفاته إلا حين أعلن صدى الانفجار ناحية الجنوب أن أحدًا قد وطأ العبوة وانسحقت فيه، رحمه الله-.

الدموع الساخنة التي تنهل من عيني صبا كانت تعزي حكاية جدها، لم تستطع قصة جدها أن تغير من حزنها شيء، بل تحولت عيناها إلى مضخة دموع تسقي بها جفاف آلامها، أيقظت الحكاية صورة أمها التي كانت تحكي الكثير عنه.

بذلتْ صبا جهدًا خارقًا في كبح دموعها التي لم تتوقف، في هذا الوقت راودها إحساس غريب، لقد قال منذ قليل أنه قد رتب غرفة تحتضن كافة متاعه، مؤكد أنه يحفظها في مكان ما لم يكن قد تخلص منها، رفعت سقف جرأتها وهي تهدي للسيد غازي هذا التساؤل:

- -أما زلت تحتفظ بأغراض جدي؟!-

أخذ السيد غازي هامش الانتساب بكلمة -جدي- من زاوية أنه كان سوريا مثلها ليس إلا، لا يمكن أن تكون الصدفة محكمة بهذه الطريقة، تسبلت أفكار السيد غازي وهو يمتشق من ذاكرته ما حدث وقتها، بعد قليل من شراسة التفكير قال موجهًا الكلام إلى صبا:

- -اتبعيني-.

فجأة تغير وجه أيمن، ترى ما الذي يحدث، لم يكن يعرف عن سرمد ما تعرفه صبا، ثم أنه لم يدقق في أعماق الكلام مثلما فعلت، تبع الجميع غازي

وليست صبا فقط، وحدها منال كانت تدرك ما تريده صبا آنذاك.
تحرك السيد غازي في أقصى الردهة متوجهًا إلى الغرفة التي علقت في ذهنه، استمر في السير حتى توقف أمام باب:
- -سجلات الذاكرة تلك دائمًا ما توضع في أماكن عتيقة-. علق السيد غازي قبل الدخول.
اهتز قلب صبا وهي تدخل الغرفة، كانت رائحة الغبار تسود فضاء المكان، الظلام حالك هنا بشكل مضاعف، أضاء السيد غازي مصباحه اليدوي ودخل الجميع قال وقتها:
- -هذه الغرفة تضم أشياء كثيرة حتى أنا لا أعرفها، بعض النزلاء كانوا يتركون أغراضهم في الغرف ويرحلون بلا أسباب حقيقة، كنت أحفظ أغراضهم هنا فإن عادوا أخذوها وإلا فتبقى كما هي-.
تحرك السيد غازي إلى أقصى الغرفة ومدّ يده إلى حقيبة سمراء، أشار إلى أيمن أن يساعده في حملها، في البداية بادر أحمد في حمل الحقيبة عوضًا عن أخيه، انتشلوها إلى الخارج، حاول السيد غازي مطاوعة سحّاب الحقيبة ليفتحها لكنه أبى أن يتحرك، كأنه أحكم أسراره، لذلك اضطر أن يشقها بسكينه، امتد الشق إلى أخر الحقيبة فنفذت رائحة الزمن والذاكرة والعراقة والغموض في الأغراض التي برزت من الشقاق، أنهى السيد غازي فتحها بيد مرتجفة رهبة الأشياء المرتمية في أرجاءها، ظهرت الحقيبة من الداخل ولكنها مصفوفة بعناية بالغة، تحسس المستطيل الذي طفا فوق كل القطع، توصلت أصابعه إلى محيطه من الجانبين فحمله إلى مستوى صدره ونفث بلين حيث طبقة الزمن التي انكفأت على ملامحه، كانت صورة بلا ألوان لرجل يقف بجوار سيدة عشرينية، لمعت عين صبا بالحياة حينما رأتها،

هامت في صدرها هالة من السعادة التي أغفلها الحزن، وانزلقت دمعة ناعمة استغرقت حنينًا كاملًا لتسقط.

- -كنت مؤمنة أنني سألتقي به يومًا ولو في صورة-. علقت صبا بداخلها.

أيمن الذي تفهم الأمر برمته فنظر إلى السيد غازي وهو يقول له:

- -كان سرمد جد صبا من ناحية الأم-.

مرة أخرى عاد الجميع إلى الصمت مقدسين لحظة لقاء كتلك التي تأخذ صبا في جلالة الذاكرة، أيقظهم من هذا السراب صوت صبا وهي تقول للسيد غازي:

- -أيمكنني أن آأخذ أغراضه، تعلم أنه لن يستطيع أن يأخذها بنفسه!-

- -ليس هنالك داع لتطلبي ذلك، كنت من نفسي سأعرض عليكم الأمر-.

نام الجميع إلا صبا بعد جولة الزمن التي عصفت في حكاية السيد غازي، وضعت خدها على صدر الصورة وغرقت في هواجسها التي لم تنطفئ، لقد استقر في ذهنها فوضى الحكايات التي لطالما قصتها أمها وبرقت في عينها الدموع التي لم تتوقف، عندما اقتربت منال منها رفضت أن تتكلم معها، لقد أرادت أن تتفرد في حرائقها بمفردها، أرادت أن تتميز بما تتذكره الآن، جاهدت عبراتها إلى أن تملك منها النوم وغرقت في سريرها تحلم بما لم تصل إليه يومًا.

## -٥-

يا حظي

لن أكون هنا طويلًا، هكذا أخبرتني الطبيبة، استنتجت أن الموضوع متعلقًا بالانتكاسة الأخيرة التي تعرضت لها، كلما تذكرت أنني بحاجة إلى المنزل ولهذا الجوع الذي يستكين فوق حدودي الضارية التي أنعشت رغبتي للموت، ها هي صبا التي كانت في الحرب تراهن أنها ستعيش صارت تقاسي في السلام هذه الحياة، لقد خبت النار في دمائي وأعلنت فقط أنني لا أستحق الحياة، لذا قررت أن أفارق العالم بشفرة حادة، لقد رأيت مشاهد كثيرة من الماضي تعبرني وقتها، رأيت أمي، رأيت أبي، رأيت منال، ورأيتك، رأيتك تبتسم بفرح ممتلئ مع أن ابتسامتك لم تكن كافية لتقنعني أن أعزف عما أقدمت عليه، لقد رجنّي الخبر الذي جاء به والد منال، ولم تنصرف فكرة الانتحار من ذهني وقتها.

دخلت الطبيبة بشفتين تلامس التبسم، دنت حتى رأس السرير ووضعت في العبوة البيضاء التي تتصل بأنبوب يصل حتى ظهر كفي إبرة أخبرتني للتو أنها مهدئة، استكانة على طرف السرير وهي تدون في دفترها ملاحظات عن حالتي، سألتها:

- -متى سيسمح لي بالانصراف؟-

- -في الوقت الذي تتعافين فيه بشكل كامل؟-

تجاهلت جوابها واستطردت:

---

- -لكنني لا أشتكي من شيء-.
أغلقت هذا التساؤل بذكاء وهي تقول:
- -فقدتِ السيطرة على الحياة؟-
- -لماذا لا تقولين أن الحياة فقدت السيطرة عليّ-.
هممتُ لأقول شيئًا لكنها تابعت في تذمر:
- -هل تظنين أن الموت ينهي مشكلات الحياة-.
بقيت شاردة للحظة، لماذا تراني بهذا الضعف، ربما لو كان أي فتاة مكاني لقررت الانتحار، انسحبت من جولة الأسئلة التي لن تنتهي وأنا أسألها:
- -كيف جئتُ إلى هنا؟-
أحست أنني أنسحب من فضائها، قلّبت الأوراق التي بين يديها ثم دارت عيناها للخلف وهي تشير للرجل الذي يجلس خارج الغرفة، لم أكن متأكدة أنه عمي، لأنني انتحرت قبل عودته من الخارج بزمن كافٍ لتسيل كل دمائي وأنتهي، ضمدت الطبيبة الجرح مرة أخرى واستأذنتها أن تدعو منقذي.
بعد كل تجربة يأس نموت معها ندرك أننا كم كنا نستحق الحياة.
ما الذي جاء به في هذا الوقت بالذات، كيف أطعمَ الحياة ذاكرتي من جديد، كان لا يزال في داخلي احتضار قبل أن يدخل يونان حاملًا باقة ورد بيضاء وهو يقول واضعًا الزهرات قرب رأسي:
- -الورود البيضاء تخدر في أفكارنا الموت-.
ابتسمت للتو وأنا أقول له:
- -كأن لك عهدًا قديمًا معه-.
قال متهكمًا:
- -لا موت يتسع لي-.

ابتسمنا في تناسق، بعدها نزع من باقته وردة وقدمها أمام وجهي واستطرد:
- -لا تموتي قبل أن تكوني وردة-.
لقد نفضت كلماته جزء من الحزن القاطن في روحي، كأن رائحة الورد مسحت شحوبي البيضاء، سألته:
- -ما الذي جاء بك ليلتها إلى بيتي؟-
- -سوء الحظ!-
ضحكت بملء فمي، قلت بعدها:
- -تعرف أنني لا أؤمن بالحظ-.
نظر إلى عيني قبل أن يقول:
- -لو كنت مكانك لآمنت به الآن-.
ابتسمت وأنا أعاوده السؤال:
- -قل لي حقًا لماذا أتيت؟!-
جلس على الكرسي المرافق للغرفة كأنه يخلو بنفسه في أفكاره من ثم تابع:
- -أردت أن أسعف نوبات اكتئابي بأن أعود إلى الرسم مرة أخرى، لهذا لجئت إلى سمسار كنت أعرفه منذ مدة لاختيار شقة في مكان مناسب، حتى أتخذ منها معرضًا للوحاتي، فدلني إلى بيتك الذي لم أكن أعرف حقًا أنه بيتك، حماستي جرتني بأن أرى المكان قبل أن ينتهي اليوم، لذا جئت إلى صاحب البيت استأذنه لأرى الشقة وأنهي اتفاقي معه، عندما وصلت للعنوان الذي أملاني السمسار طرقت الباب فلم يستجيب أحد، ناديت بصوت مرتفع باسم السيد أحمد صاحب الإعلان دون فائدة، بررت بذلك صعودي أعلى الدرج لأطرق الباب العلوي فيسهل على صاحب البيت الاستجابة للنداءات الشاردة، عندما صعدت لنهاية الدرج الذي انتهى حيث الشقة العلوية

لاحظت دماء حديثة تنقع من تحت عتبة الباب، طرقت الباب فلم يجبني أحد، طرقت كثيرًا حتى وجدتني أتخلى عن كل أصول الذوق وأنا أحطم الباب بكتفي، لم يقاومني كثيرًا، لم يقاوم تعنفي فنفرج وخلفه فتاة مضرجة بدماء ساخنة، وبجوارها شفيرة حادة أظنها للحلاقة وليست للموت، دخلت ولم تأخذني سِنة تردد، تحسست نبضك الذي ادخر أخر عثرات الحياة، حبست وريدك بطرف قميصي الذي مزقته حينها، وحينما حملتك لاحظت من وجهك أنكِ صبا، أسرعت بتكوين رقم الإسعاف وأتيت بكِ إلى هنا، بعدها عدت إلى بيتك مجددًا، وجدت رجلًا ينحدر على أخر سلم البيت واضعًا يده فوق رأسه، أحسست بمدى الحزن الذي يملأ صدره، ربتت على كتفه وأنا أسأله:

- -أنت والد صبا؟-

اتسعت حدقتيه صوبي قبل أن يجيب بكل فضول:

- -نعم!!-

ربت على كتفه وأنا أدعوه بأن يطمئن لأنكِ بخير، كآبته التي ظهرت في عينيه كانت قاسية، تحرك معي حتى وصلنا مرة أخرى إلى المشفى، لم يهدأ باله إلا حينما اطمئن عليكِ من خلال الطبيبة، ودعوته بأن يعود للمنزل وبأنني سأبقى هنا، لكنه رفض، ظل جالسًا خارج الغرفة إلى أن غلبه النوم والتعب فحملته إلى الغرفة المجاورة لكِ، واتصلت بالسكرتيرة أخبرها أنكِ لن تأتي اليوم لظرف ما، لم أشأ أن يعلم أحد بهذا الأمر خاصة في بداية حياتك المهنية، كل هذا حدث وأنت نائمة هنا كالملاك-.

ابتسمت وهو يلقي الحكاية في أذني، وراح يدلل تفاصيلها كأنه هو من كتبها في صحيفة قدري، استجبت إلى دموعي عندما ولج عمي إلى الغرفة،

وفي عينيه بكاء أكبر من حزني، خجلت بأن أواجهه بعيني مباشرة وأن أُريه وجهي، لقد كان في عينيه عتاب وتساؤل عملاق، ارتعشت يداه قبل أن يمسّد فوق رأسي ويسألني:

- -صبا حبيبتي، أنت بخير؟-

لم أستطع أن أمنع عبراتي، كانت تلك المرة الثانية التي أبكي فيها أمام يونان، تدلت الدموع من بين أهدابي كما يتدلى المطر من نهد الغيوم، اقترب عمي مني ودفنني في أحضانه برفق، أكاد أجزم أنني أقرأ في عيون الجميع تساؤلًا عما حدث لكنني لا أستطيع أن أخبر أحد بما حدث، لا يمكن أن أطلع أحد على هذا السر، ترى، ماذا يكون ذلك السر الذي قادني للانتحار؟

# أفقْ

-هل لديك فكرة عن شيء اسمه الكبرياء، أرجوك لا تمسه إنه أفق أي علاقة-

# -١-

## بداية أخرى

عاداتي تغيرت، كل ستائر غرفتي تنازلت عنها، لون غرفتي تحول من الأصفر إلى الأزرق، أصبح مزاجي يتفانى في مسخ نفسه، علقت صورة جدي فوق رأس سريري بعدما غفيتْ لأكثر من عشر أعوام أسفله، إضافة إلى ذلك أنني أخذت إجازة من العمل حتى أهدأ كما نصحت الطبيبة، كذلك بدأت أتردد إلى طبيبة نفسية تدعى مرنا، لا أعرف ماذا طرأ لتتحول حياتي بهذه الطريقة، شعرت أنني لابد أن أسلخ الأشياء القديمة وأعيد بناء هيكلي من جديد، إلى جانب أن محاولتي الأخيرة للانتحار التي شعرت من خلالها أنني هشة ومبتلة وأنانية وغبية وضعيفة، لأول مرة أعترف بها أمام نفسي أن الرؤى الساذجة تملكتني وحكمت قبضتها على خاصرتي وقضت على الإيمان الذي حاولت أن أغرسه في أحشاء قلبي منذ اعتنقت الإسلام بشكل كامل أنا وعمي أحمد. لماذا لا نرى في الفواجع سوى المشانق التي تودي بحياتنا وتكور في صدورنا اليأس، لماذا نفتح موانئنا الداخلية أمام الرمال الكئيبة دون أن نترك الحياة تمضي بسوئها وأسوياتها.

حالة الانهيار التي شملتني حتى أصغر جزء فيّ لم تبقِ فيّ رماد العزيمة، كنت أؤمن أن جزء من العلاج يكون سام، لأن بعض السم يداوي السم، لكنني رأيت أني واهنة بشكل جعل من روحي السامة تقضي على كل شيء، كنت في صف الحياة حتى رأيت الحياة تأبى أن تكون في صفي، وانسحبت حتى

رأيت الظل وملاك اليمين.. ويونان.
بعد مرور قرابة الشهر في البيت لم أكن قادرة على الاستمرار بهذه الشاكلة المؤذية، أسمع حسيس الجدران يشتكي مني ومن سحنتي العابسة ومن حركاتي الثابتة قررت العودة إلى العمل، حاولت أن أتقدم بقدر الانسحابات التي صنعتها في الأسابيع الماضية، كان أمامي قضية يونان مع طليقته التي تساومه على اختفاء طفلته ولصق التهمة فيه، حين تشفعت لها كان في نيتي عدم إلحاق الأذى به، كأنني أردت أن أعيده للحياة كما أعادني للحياة.
جهزت هندامي، وارتديت معطفي الخشن وزممت حجابي جيدًا ونظرت للمرآة مرة أولى بعد الحادثة، فوجدت أصابع الموت قد ظهرت على ملامحي على هيئة شاحبة، كأن الحياة طارت من وجهي بهذه السماجة، تنفست بعمق وأنا أصلح نقوش حاجبي، وحملت حقيبة يدي في منتصف ساعدي ونزلت بنية العودة للحياة.
كلما تناولت درجات السلم درجة درجة أعود لمغامرة يونان حين أعادني للحياة، وكيف أجرت الصدفة خواصها في تلك الليلة عندما انتحرت أمام باب الشقة، أتذكر أنني كنت مختنقة وقتها بطريقة نافرة، كنت أفكر في النزول حيث البحر لأخبره بملماتي، لكنني أمام الباب ابتلعت تلك الفكرة ورأيت أنه من القوة أن أموت دون أن أشتكي لأحد، فتحت جيب حقيبتي أخرجت شفرة حادة وتركتها تلهو بحرية عند نهاية كفي، عندما أتسع الجرح وأحسست أن فوهة الجرح تتدفق بغزارة فقدت كل حواسي، وانطفأت كبلورة إضاءة فقدت فتيل الحياة المتوهج.
عندما وصلت للمكتب بثت السكرتيرة كعادتها ابتسامة مشعة ودعتني إلى الداخل حيث يستكين الدكتور أدهم، تقدمت ورائها، ودخلت بذريعة

نسيان كل ما فاتني، بدأ حديثنا حين رآني الدكتور مقبلة نحوه، ألقى جملة ترحيبية قصيرة ثم تابع:

- -ما بكِ يا صبا؟، أرى في عينيكِ حزن كبير-.

كنت قد قررت ألا أخبر أحد بما حدث، يجب أن يختبئ الأمر كله أو ينتهي أو ألا أفكر به بتاتًا، وأن قدومي اليوم من أجل العمل وفقط، تبرأت من كل أوجاعي أمامه وأنا أجزم أنني بخير وليس هنالك داع ليقلق، صممت على أفولي ومن ثم سألته:

- -ماذا حدث بشأن والد بولينا؟-

رفع حاجبيه مستنكرًا وهو يقول:

- -ألم تصل لكِ الأخبار؟-

- -لا لم يخبرني أحد، ماذا حدث؟-

- -لقد عاد يونان إلى بولينا مرة أخرى، تعرفي، لم تكن هنالك قضية من الأساس، كأنها أرادت أن تضغط عليه فقط من أجل أن يعود إليها-.

سألت بشيء من الذهول:

- -وكيف وافق يونان على ذلك؟-

- -يونان لا يحب المشاكل-.

تجنب المشكلة قد يصبح مشكلة أكبر، لم أدرِ بماذا أجيبه، فالأمر من البداية لا يعنيني، لماذا أنا قلقة عليه، يستطيع أن يتدبر أموره وحياته، طأطأت رأسي بشيء من القبول وناولته ابتسامة وأنا أقول له:

- -من اليوم أستطيع أن أبدأ العمل-.

رفع قلمه الخشبي مشيرًا إلى ملف على طرف المكتب وقال مبتسمًا:

- -جميل هذه العزيمة التي أقرأها في عينيك، يمكنك استلام هذا الملف

وقراءته جيدًا سيكون أول قضية عليكِ متابعتها-.
ثمة هزيمة تجلب في ذيلها العزيمة.

*****

شعرت أن يونان رحل عني في هذا اليوم، لقد عاد إلى حياته السابقة، مستعيدًا كل ذكرياته التي صنعها مع بولينا وطفلته، حين تحركت بداخلي دوافع كثيرة، بت متضايقة، لو لم يكن أنقذني وقتها لوفر عليّ كل هذه التعاسة التي تنغل فيّ دون توقف، تُرى ما الذي فهمته من مشهد إنقاذي، ببساطة، لو كانت أمامه فتاة غيري بدوره سيفعل مثلما فعل معي، هل كان سينتظرها بباقة ورد بيضاء ويقدمها حتى سريرها، السطر الأخير الذي لم أفهمه في هذه الحكاية لماذا لم يعاود الاتصال من أجل المعرض الذي قرر إقامته في الطابق السفلي من البيت؟
كلما أخذتني فكرة الاتصال به دارت في رأسي حلقات منقوش عليها -دعيه وشأنه-، لماذا أحشر نفسي في الظلال الممدودة لأخر الذاكرة، فجأة تجرأت وفصلني عن العجز مسافة تكوين رقمه على هاتفي، استغللت الكارت الذي يحمل هواتفه عندما أعطاني إياه في زيارته الأخيرة للمكتب، بدأ رنين الهاتف الذي زاد من وجلي، وقف الهدير عن الرنة الثالثة وجاء صوت سيدة ناعمًا من الطرف الآخر:
- -ألو-.
توقفت تفكيري عند هذه الكلمة، كان سيوفر عليّ الكثير لو أنه أجاب بنفسه، كيف أقنعها أن تجعل زوجها يجيبني، لو أنني اعتذرت لها بخطأ في الرقم لكان الأمر أقل وطأة مما لو استمررت في المحادثة، هذا لأننا نميل لتقبل الاعتذار عوضًا عن الأعذار، رنّ في خاطري فكرة المعرض التي طرحها

أمامي فأجبت من تلقائي:
- -صبا أيمن معكِ، هل السيد يونان موجود؟-
صمتت دقيقة وأنا اسمعها تكرر اسمي أمام حسيس أحد، ربما يونان، ثم جاء صوته:
- -يونان معكِ تفضلي؟-
تذكرت أنه لا يعرف اسمي الثنائي فقد ظن أن عمي أحمد هو والدي، لو كنت أخبرتها أنني صبا أحمد لقابلني بترحاب أحب، وربما يتحدث بطريقة رسمية لأن زوجته إلى جواره، تلاشت كل هواجسي وأنا أقول له:
- -صبا معك يا يونان-.
كان يكفي أن أحذف -سيد- وأطلق اسمه ليعرف أنني صبا، انتفضت في صدره سعلة خفيفة قبل أن يجاوبني:
- -كيف حالك آنسة صبا؟-
لقد ألقى إشارة إلى أن أحد مازال على مقربة منه مستدعيًا كلمة -آنسة- قبل اسمي، اختزلت كل ما أريد أن أقوله وأنا أسأله:
- -هل شيعت فكرة المعرض من رأسك؟-
- -لا أبدًا، انشغلت فقط في الأيام السابقة قليلًا، سأكون جاهزًا في الغد لأراه إن لم يكن لدى والدك مانع-.
شيء ما بداخلي يرفض أن يراك وأشياء أخرى تريد، هل لديك فكرة عن شيء اسمه الكبرياء، أرجوك لا تمسه.
تزلزلت فكرة إتيان زوجتك في رأسي، أيعقل أن تأتي بولينا، وتصافحني، لو نظرت في عيني سترى زوجها، لا أعرف كيف أخفيك بداخلي بحيث لا يعرف أحد ولو حتى أنت، أنت!

# -٢-

ثم مضى

أحلامنا هذه عجوز جدًا، وثقيلة، بيدَ أننا لا نكف عن الثرثرة بها في كل وقت، لم يسمح الله لنا سوى أن نشيب بأعمارنا، وقد تكون هذه نعمة كبيرة منه ومنحة اختارها للبشر، نحن نستطيع أن نؤلف أحلامنا كما نفعل حين نكذب، نستطيع أن نلفق في أعماقها آمالًا بكونها ستتحقق، وقد نرى بالتدرج الذي يكشف لنا الحقيقة أن -حاء- حلم ليست سوى -ألِف- متنكرة.

قبل أن يأتي الصباح، وقد يصح التعبير لو قلت قبل أن أستمر في سهادي، مضيت متخبطة بين أفكاري التي لا تهدأ، وتلوك هذا الصوت بداخلي، ماذا تفعلين يا صبا، ما الذي يجرك لارتكاب حماقة كتلك، وتهاتفين رجل عاد إلى مضمار حياته، ظللت أهاجس بـيونان، وبأفكاري المتشظية، وببكورة أحلامي التي ما عاهدت نفسي أن أتحول إلى مجنونة تهذي بما لا تملك، جزء من قلة الحيلة أن يخلق الله في أعماقنا حديثًا لا ينتهي.

جاء الصباح وجاء معه رنين يهاتف قاعي، استدعاني حدسي أن أنفض الذاكرة التي تعبئ المكان، فتحت باب الشقة وهبطت إلى حيث يكون الطابق السفلي، كان الوقت مبكرًا كما انتبهت وأنا أفتح القفل حينما لمحت عقارب الساعة تعض على الشارة السابعة، كنت مساء الليلة السابقة قد أخبرت عمي بقدوم يونان، ابتسم وهو يردف قائلًا:

- -على ما أعتقد أن الإعلان كان يحمل رقمي أنا!-
ابتسمت بدوري من الصياغة الماكرة التي يتحدث بها عمي، ربما يفهم ما أنا عليه، أشعر أنه اخترق تفكيري وقرأ كل ما يدور في عقلي، لم أشأ أن أبرر له أو أن أقص له ما جرى، ربما لم يحدث شيء من الأساس.
فتحت القفل وفاقت الشقة من غفوتها في هذا الصباح، تسللت إلى كل الغرف أتحرى أغراض لم يعد لها مكان بحلول المستأجر الجديد، ألقيت بصري نحو الصندوق الذي كان يحمل أغراض جدي أزلت عنه طبقة الغبار، وهمت الذكريات تعبث في عقلي، تمايلت اللحظة وترنحت الذكرى حيث أخذت جانب كبير من تفكيري قطعه عمي الذي تسلل خلفي ببطءٍ، انتبهت لوجوده حين نادى بصوت خفيض:
- -صبا، هل أنت هنا؟-
وقفت قليلًا وأنا أسلخ تلك الذكرى الجاثمة، التفت نحوه بابتسامة حانية، تصديت للماضي وأنا أغلق الصندوق، وحملته معي للأعلى، بقيت ساهمة لمدة كبيرة وأنا أتخبط بين ملائكتي وشياطيني، تناولت فطوري مسرعة دون شهية، وظللت مترقبة قدوم يونان، هل يفعلها ويخذل أطراف الروزنامة التي تنتظره.
بعد ساعتين على الأقل احتل رقمه شاشة هاتفي، اتصلَ بي حيث جاوبته بمزاج غير متوازن:
- -يونان؟-
- -صبا-ح الخير-.
قالها كما تعودتها منه، بعدها تابع:
- -أنا في الأسفل-.

تقدمت نحو النافذة حتى تخبو حرائق الفضول التي بداخلي متسائلة: هل جاء بمفرده، أم هل يكون قد اصطحب زوجته معه، عندما رفعت صفحة الستارة التي تغشى سطح النافذة لمحته يقف بمفرده، لا أدري لماذا سرت في جسدي سعادة مغلفة توقفت في أعماق قلبي، تنهدت فيما أقول له:

- -ثوان فقط وسأنزل-.

حالة من اللا توازن تغمر مشاعري، ظللت أرتب نفسي وأنضب تلك الفوضى التي تشتعل بداخلي، نزلت إليه حيث كان واقفًا بمشاع البيت، حين لمحني أخمد سيجارته تحت حذائه، كانت تلك المرة الأولى التي أرى العقب الأبيض يلامس شفتيه، مد بفتور كفه يصافحني، ابتسمت وأنا أمد يدي، ألقى تحيته الجاهزة والتي رددتها من تلقائي ودعوته للدخول إلى الشقة.

وقفت أمام جبين الباب أراقبه وهو يتحسس المكان ويختبر الغرف، كان هادئًا جدًا، تعمدت أن أُشيح نظري كي لا يقرأ العتاب النائم فيه، لماذا لم يخبرني أنه سيعود لبولينا، ربما يجدر بي أن أسأله، التفتَ نحوي وهو يقول:

- -ستكون الشقة معرضًا جيد، لكنني سأهدم الجزء الأمامي من الشقة لأغير الواجهة لتوائم الديكور، وأفكر أيضًا أن ألغي الحوائط الداخلية لتكون الغرف ساحة كافية لتكتنف حرية اللوحات وضوضاء الفن، ما رأيك يا صبا؟-

اندفعت في دمائي حرارة وأنا أقول له:

- -تريد أن تفسد فطرة المكان لتبقي على فطرة هواك؟-

- -لماذا تقدسين هذا الثبات؟-

بطريقة غير تلقائية قلت له:

- -ما الذي تعرفه عن الثبات؟-

انتبهت أنني انحدر بسؤالي إلى الشخصنة التي قد تضايقه، رجع بظهره إلى الحائط ورفع رأسه إلى أعلى، كأنه أحس ما أرمي إليه من ثم نادى:

- -صبا!-

جاوبته:

- -نعم!-

- -أنت كل ما أعرفه عن الثبات-.

- -كيف؟-

انفعل قليلًا قبل أن يستطرد:

- -ألا ترين أنه يقودنا للانتحار-.

- -الانتحار يقودنا إلى باقة ورد بيضاء-. افتعلت ابتسامة متهكمة.

- -كل باقة ورد ورائها رسالة-.

- -كل رسالة ورائها غياب-.

- -كل غياب ورائه سبب-.

- -كل سبب ورائه رجل-.

- -كل رجل ورائه امرأة-.

كنت أتألم ونحن نتخاطر بهذا التحدي، لا أحب أن ألق اللوم على أحد، لا أحب أن تجرحني نظرة التعاطف التي أقرأها في عينيه، حاولت أن أحشو صمت المسافة التي تفصلنا وأنا أقول له بكبرياء:

- -الثبات هو أن ننسى أننا لسنا بخير-.

كل سيرة يونان التي أعرفها خيوط قصيرة تبدأ بقصة، وتنتهي بأخرى، رجل مثله لم يعرف الثبات في حياته، رجل متشظي لا يحمل ذاكرة مستقلة، أصبحت الحياة بالنسبة له أشياء مرصوصة لا تحمل المتعة، إلى جانب أنه لا

يحاول أن يقطع خشوعه كـيائسٍ ويبني بقلبه حياة جديدة.
التفت إليه وأنا أجر الحديث إلى منتهاه:
- -يونان، أريد أن أخبرك أمرًا-.
أخذت قسطًا من انتباه وهو يركن بوجهه نحوي قائلًا:
- -تفضلي يا صبا-.
- -تعرف أننا متناقضين إلى حد تقدسه الصدفة-.
- -ما الذي تودين قوله-.
- -تريد أن تعرف لماذا حاولت الانتحار؟-
لا أعرف ما الذي جرني لأخبره، ولماذا اخترته هو بالذات ليكون شاهدًا على جسارة الخبر، هز رأسه بعدما احتدت في عينيه نظرة الانتباه وهو يقول:
- -طبعًا يا صبا..!-
بعض الأسرار حين نفصح عنها نعالج بها شيء، نزل الخبر على أذن يونان وربما في عينه، بدت ندف العبرات تلمع في عينيه دون هوادة، اقترب مني حتى شملني في حضنه، ثم رفع رأسه معتذرًا عما تبادر منه منذ قليل، ثم مضى.

٢ أبريل/نيسان ٢٠٠٣
جاء الصباح حاملًا معه وعدًا كبيرًا للعائلتين بالسلام، حين أيقظ الضوء حنايا الجميع استعادت صبا جزء من الهشيم المنثور في حرائقها القديمة، واستمدت بعض من قوتها من الصورة التي استكانت في أحضانها من ليلة أمس، لقد فتحت عينيها ساهمة في ملامح جدها، تتذكر معه كل اللحظات التي تلثمت في أنحاء طفولتها وكل البطولات التي حدثتها عنها أمها قبل

أن تتوفى، جمعت كل الأغراض في الصندوق وأخذت قلمًا كان مائلًا على حافة المنضدة التي تجاور سريرها وحاولت أن تكتب على الصندوق كلمة لم تظهر بشكل كاف لتكون مقروءة، شرعت في الضغط بأقصى قوتها على نصل القلم لكنها لم تفلح في الكتابة، تركت القلم جانبًا بعدما يئست من الأمر، كان في نيتها أن تكتب -رحمة الله عليك يا جدي-، لم تكن منال تفهم ما تريد القيام به صبا، راقبتها في صمت وهي ترتب حاجيتها وفي صدرها أمنية صغيرة، أن يمر اليوم بسلام.

احتشد الجميع عند التاسعة صباحًا وتوقفوا عند الدكة المنتصبة أمام الفندق منتظرين السيد غازي دليلهم الوحيد الآن، كان السيد غازي على وشك الخروج في حين تقدمت صبا حاملة صندوقها ووضعته في مساحة جلوسها، وعندما خرج السيد غازي أحضر سيارة دفع رباعي تتكيف على التحرك في رمال المنطقة وتتسع لكافة الأغراض التي تحملها العائلتين، توقف على بعد أمتار منهم وحمل جواله متصلًا بأحد أصدقاءه، بعدها استدار وهو يحثهم على الجلوس في السيارة، جلس الجميع في حين اقترب منهم وهو يقول بصوت خفيض: -كل من في السيارة عراقيون تمام، لا أحد يعرف أنكم سوريون، ولو طلب منك أحد أوراق أخبروهم أنكم فقدتموها في القصف الذي حدث في بغداد-، بالرغم من غموض الأمر إلا أن الجميع طأطأ رأسه بنية الاستجابة لما قاله، بعدها بدقائق جاءت سيارة أخرى توقفت أمام الفندق في حين نزل منها رجل ملثم يرتدي ثياب بدوية اقترب من السيارة وألقى نظرة خاطفة من الزجاج، ثم رجع إلى السيد غازي وهو يقول بصوت يكاد يسمعه الجميع:

- -خليهم يزيدوا الأجر، الأكراد يأخذون من كل فرد ٥٠ دولار، والأتراك من

الجهة الأخرى ٥٠ أيضًا-.
تفحص كل من أيمن والدكتور نقودهم، ومازال السيد غازي والبدوي يتحدثان حتى اقترب البدوي من السيارة وجلس على المقود وتحرك بهم، آثر الجميع الصمت، ساعدت كلمات صبا الخفيفة مع منال أن تكشف اللكنة المختلفة، فحدق الرجل من المرآة أكثر من مرة، حتى أصفرت ملامح أيمن خوفًا من أن يكشف أمرهم، تحدث وقتها الدكتور محمد باللكنة البغدادية التي أتقنها مع المدة التي قضاها هناك مموها مع أحمد، فزالت الشكوك حولهم، البشرة السمراء لم تكن عائقًا لتفضح ماهية العائلة السودانية فوجود عراقيين يحملون تلك البشرة يزيل كل من يحاول التفرس حول أصول المواطن، ساعة من التحرك وتوقفت السيارة قبالة نهر الخابور في مدينة زاخو على الحدود العراقية التركية، وانتظرت السيارة أمام لوحة عملاقة مكتوبة بثلاث لغات مختلفة العربية منها مكتوب عليها -معبر إبراهيم خليل الحدودي-، تجمدت الدماء في عروق الجميع في مشهد تتكاثر فيه الحلقات العسكرية، والأسلحة المعلقة على أكتاف الجنود، إضافة إلى الصف اللا منتهي من البشر المنتظرين النزوح إلى تركيا والذي يبدأ حيث توقفت السيارة ويمتد حد الأفق.
بإشارة من البدوي نزل الجميع حاملين حقائبهم وخاطبهم بصوت خفيض:
- -لو قالوا لكم افتحوا الحقائب للتفتيش لا تقاموا، أريد أن تسير الأمور بلا مشكل-.
ثم تابع وهو يوجه الحديث إلى أيمن والدكتور:
- -أريد من كل فرد ١٥٠ دولار حالًا-.
جاوبه أيمن في حنق:

- -لكنك قلت للسيد غازي ١٠٠ دولار-.
رد البدوي باستهزاء:
- -المعترض لن يمر، هذا من أجل خاطر السيد غازي، لو أنكم لستم عراقيين لكان كل فرد دفع ٥٠٠ دولار-.
تفطن الجميع السبب الذي رمى إليه السيد غازي حين حثهم أن يقولوا بأنهم عراقيين، دخل الجميع في الصف حيث تقدمهم الدكتور محمد ومنال إلى جانبه، دخل إلى الجندي بثقة، وفتح حقيبته الجلدية ووضع أغراضها على الأرض ليحسن تفتيشها، أضفى هدوؤه إلى سهولة مروره دون شكوى، كان البدوي قد أوصى ألا يلتف أحد إلى الوراء وألا يظهر أحد بأنه يعرف أحد أثناء التفتيش، عندما جاء دور صبا كانت قد تقدمت حاملة الصندوق ومن خلفها عمها أحمد ومن بعده أيمن، ابتسمت صبا للجندي المخول إليه التفتيش وأظهر أحمد من ورآها ابتسامة كي لا يسترعي انتباههم، حين أخرج الجندي ما في أحشاء الصندوق لاحظ الصورة التي تظهر دون ألوان والتي قد بهت عليه الزمن أوجاعه، نادى بعدها رجل يكاد يتقن العربية وهو يستفسر من صبا:
- -من هذا الذي في الصورة ومن السيدة التي معه؟-
التفتت صبا إلى أبيها قبل أن تجيب:
- -هذا جدي-.
عاود يسألها من جديد:
- -لكنه لا يظهر أنه عراقي خاصة السيدة التي تقف إلى جواره-.
لم تقل صبا شيئًا، ظلت واقفة بوجه ممتقع وعينين حائرتين، تقدم أيمن ببسالة وخرج عن الصف وهو يتحدث إلى الجندي:

- -نعم سيدي، إنه جدها من ناحية الأم-.
بعد أن انتهت الأسئلة والملاحظات، أشار الجندي نحو أيمن وصبا بالتنحي جانبًا، تقدم إليهم رجل يحمل تقاطيع عابسة ونظرة لا تنذر بالخير، كانت تبرز في فروته بعض الشعيرات البيضاء وحذائه عسكري وفوق أكتافه شارات توحي برتبة عتيقة، اقترب منهما وأمر الرجل الذي يتحدث العربية بترجمة ما يقوله:
- -يجب أن تدفعان ١٠٠٠ دولار لتمران، بما أنكما لستما عراقيين-.
ملأ الفزع قلب أيمن، طلب متوسلًا من الجندي أن يجعله يمر وشرح له ما حل به في الحرب من خسارات فادحة، ولكن بلا فائدة، هؤلاء لا يعرفون لغة الرحمة إنهم لا يتقنون سوى لغتين فقط المال والموت.
عندما أصر الجندي بعدم مرور كل من الأب وفتاته، جن جنون أيمن فوقف وهو يرسم سخطه وغضبه في صدى المكان، حتى جاء جندي من خلفه وانهال عليه ضربًا بأخمص بندقيته عند رأسه، هطلت دمعة صامتة على خد صبا، وهي تهرول ناحية أبيها وتصرخ بأعلى صوتها:
- -أبي، رد عليّ، أبي أرجوك رد عليّ-.
فاحت رائحة الذعر في قلب صبا على أبيها، نظرت إلى اليمين واليسار وهي تبكي على ما يحدث أمامها، كان قد مر كل من عمها وعائلة منال، ولم يبق سوى الرمال الساخنة وصهد القهر ودم أبيها المسجى، تقدم رجل يرتدي مانطو أبيض نحو أيمن يتفرس في نبضه الحياة لكنه قد أعلن وفاة أيمن، لم تكن إغماءة عادية بل كانت ضربة تسدي باليتم في حياة صبا، ظلت الفتاة منهارة وتلطم خديها من الحسرة، وضعت كيل من التراب فوق رأسها وهي تصفع نفسها بقوة، وتصرخ بأعلى صوتها:

- -أبي لا تتركني هنا، خذني معك-.
حملها الجندي وهي تستعر من هول ما حدث معها، وظلت تصرخ وهي تقبض قميصه:
- -خذوا كل الأموال، خذوني أنا بس رجعوا لي أبي، والله ما أقدر أعيش من غيره، حرام، يا رب، أبي راح يا أمي، أبي راح يجيلك اليوم، الله يوجع قلبكم، الله يسود وجوهكم، أعيدوا لي أبي، أبي، بالله تسامحني، بالله يا رب تقوله بنتك أسلمت، بنتك كانت تدعي لك في كل فرض كانت تصلي من أجلك، بنتـ-.
يومذاك، اختلطت دموع صبا بدماء أبيها، تناثر الصف المستكين وراح للطفلة التي خارت قواها ونفقت كل طاقتها وهي تبكي على ملاذها الأخير، حمل الجنود الجثة في زاوية بجانب الثكنة، وحملوا الطفلة وأغراضها بداخل الجوقة منتظرين أن يتعرف عليها أحد.
على الجانب الأخر كان أحمد ينتظر أخاه وابنته، لم يلحظ ما حدث هناك، فقد عمل بوصية البدوي حين أمر بنكران التعارف في جبهة التفتيش إلى أن يمر الجميع في الناحية التركية، عندما تجاوز زمن التأخير إلى ساعتين وهو يشاهد الكل يمر سوى أخيه سأل من نفسه أحد المارين:
- -هل شاهدت أب مع طفلته، كانا في زقاق التفتيش؟-
لاح المار برأسه أنه لم يشاهد أحد، صبر أحمد قليلًا قبل أن يتقدم بنفسه وظل يسأل حتى أذهلته الصاعقة من إجابة أحدهم التي كانت تحمل الحقيقة البائسة، هرول بنفسه حتى صده الجنود من الجانب الآخر وهو يصرخ:
- -هذا أخي، أخي الذي مات يا يهود-.

أمر القائد بسماح المرور له، ظلت السبّات تنضح من فمه ولغة الوعيد ولم يسيطر على لغته فما حدث من فاجعة أدخله في نوبة ضارية من الغضب، ركض ناحية الجثة الباردة وهو يضع رأس أخيه في حضنه ويقول:

- -قوم يا أخي، خلاص وصلنا، وصلنا من أجل أن نعيش، من أجل أن تربي بنتك، صبا تحتاجك، أنا كمان أحتاجك، ليه قتلتوه يا كلاب، الله يلعنكم، الله يلعن هذي أرض، وهذي سما،.-.

أسند أحمد رأسه إلى الجدار وهو يضربه بقوة حتى غيرت الدماء ملامحه، أسعفه الرجل ذو المانطو الأبيض وربط رأسه، وحقنه بمهدئ حتى استكان واستوعب بروية ما يجري من حوله، سأل عن الفتاة، فدله أحد الجنود إليها، وجدها نائمة وهي تقاسي فطرة الحزن التي غمرت قلبها، اجتهد في حملها وحمل أغراضها وتحرك إلى الجانب الآخر، وأستأذن الضابط بمرور الجثة معهما.

عند الطريق كانت منال مع أبيها ينتظران مجيء صبا، لقد ذهبت الرحلة لمنحنى آخر لم يكن أبدًا في الحسبان، إنه الموت الذي يغير كل شيء، كان أول من أدخل الفوضى في هذا العالم هي جريمة الموت، إنه تشكيلة محكمة من الخسارات التي لا توصف، جاء أحمد مقطبًا جرحه وحاملًا بين يديه طفلة فقدت للتو كل أحلامها، طفلة فقدت للتو كل طفولتها، ركض الدكتور ناحيتهما وهو يسأل:

- -ماذا حدث؟-

- -الكلاب قتلوا أخي-.

عاون الدكتور أحمد في حمل صبا، ووضعها حيث تستكين منال، نظرت الصغيرة لصبا وهي تضع يدها على حافة رأسها وتهزها ببطء:

- -صبا، يا أختي، صبا حبيبتي، سمعاني يا غالية-.
نضحت الدموع من عيني منال وهي تمسد على جبين صبا بحنو، تركهما كل من الدكتور وأحمد اللذان ذهبا لحمل الجثة، حين وصلا أزال الدكتور الخرقة التي كانت تغطي وجه المتوفى، وعاين أثر الجرح الذي نشب في مؤخرة رأسه لقد كان في أخمص البندقة قطعة حادة أودت بحياته، جاء بقطعة قماش كبيرة حركها أسفله، بعدها أعاد الميت على ظهره وقلبه حتى أحكم كفنه وحمله مستعينًا بلوح خشبي متهرئ، اتجه حيث كانت تستكين الفتاتين، التفت الدكتور ناحية أحمد وهو يقول مقترحًا:
- -يجب أن نصلي عليه قبل المغيب، وندفنه في أقرب ضريح هنا-.
أدار أحمد وجهه حين ذكر الدكتور كلمة نصلي عليه، فصلاته على الموتى لا تشبه تلك الصلاة، حق لأخيه أن يدفن بفطرته التي عاش عليها، تلقف الدكتور منشفة بيضاء من حقيبته وبللها بالماء، وأخذ يمسح الدماء عن جسد أيمن ثم رطب خرقة أخرى وهو يمسد عن جسده مواربًا الكفن عن موضعه، أخذ يمسح المساجد السبعة: الجبين والأنف الخدين الذقن ثم باطن يديه ثم ركبتيه وإبهام الرجلين، ثم التقط حقيبته وأخرى منها القطن الأبيض وملأ مناخره وبين رجليه وكل فجوة في جسده، ثم أعاد لفه حتى بدا مقمطًا في كفنه، انتظر الجميع مرور سيارة حتى يتسنى لهم حمله حتى أقرب مسجد ليصلى عليه.
بعد ساعتين، وعند حدود السلك الشائك الذي يفصل البلدين اتجه الدكتور إلى بيت على هيئة قاطرة سيارة شحن وتقدم إلى هناك غير مفسرًا ما يحدث، توقف هنالك متحدثًا إلى أحد لم يظهر منه سوى ظله الخاوي، جاء كأنه قاسى من أمر ما حدث هناك، كان كمن ينظر إلى الناحية الأخرى يراقب

شخص ما أخفته المسافة، أقبل عليهم وهو يشير إلى شاحنة تقترب منهم، أشار للسائق ليتوقف ثم حمل المتوفى وحمل أحمد صبا التي غطست في غياهب حزنها وهي تجبل بقلب يخفق بحنو، تحركوا جميعًا إلى قرية -سيلوبي- التابعة لمدينة -شيرناق-، وصلوا هناك مع أذان العصر، وقتها فاقت صبا واستعادة جزء من وعيها المسلوب وهي تقاسي مرارة اليتم، تذكرت دموعها فأخذت تبكي مجددًا، كانت أول الكلمات التي جاءت على لسانها:

- -أبي، لقد جئنا هنا لنموت، جئنا هنا ليمسح الموت أرواحنا-.

انتهز أحمد فرصة تيقظ الصغيرة وأخذها في حضنه، شاطرها الحزن باستقواء وهو يقول:

- -أنا أباكِ يا صبا، وأنت ابنتي التي لم أقدر على إنجابها، أنت ابنتي وكبدي يا حبيبتي، لا تبكي أرجوكِ، تعرفين البكاء يعذب الأموات-.

احتضنت صبا عمها بقوة، ونزلت من الشاحنة إلى المسجد وهي تقول لعمها:

- -أرجوك، تعال صل معنا على أبي-.

استجاب أيمن لرغبة الفتاة، تقدم مع الدكتور محمد ودخل المسجد لأول مرة بنية الصلاة، كانت أول صلاة يصليها في الإسلام صلاة الجنازة على أخيه. بعدها أخذهم الدكتور إلى صديق له يدعي -محمد باموق-، أقاموا عنده لحين تجهيز الأوراق اللازمة للسفر إلى لبنان.

# -٣-

محض نزهة

كنت أتجنب شيء يبحث عنه الجميع -الحب-.
تقلبت كثيرًا على الفراش ولم تأخذني الأحلام إلى مرفأها الغامض، نقلت نفسي إلى الأريكة في ردهة الشقة، أتوجس الكثير من الأسئلة التي تتلصص في قعر رأسي، هل كان عليّ فعلًا أن أخبر يونان بما حدث، الغريب أنني لست نادمة على ذلك، تركته يحفظ السر ويساعدني على إخلاء مواسم الحزن لنجوب شوارع أخرى، ومدن لا تعرف سوى الضوء والحب.
رجلٌ وضعني حيث لا مسافة تصمد بيننا.
تحينت لحظة سطوع الشمس لأذهب للعمل، تعودت كل صباح أن أتناول فطوري لكنني لم أفعلها اليوم، كان من السهل كسر أي عادة في هذا الوقت، أعترف أنني كنت محبطة بشكل كبير، تمرغت على بساط القلق وحدي كأنني كنت بحاجة إلى أحد ينتشلني من بركة الوحل التي أغرق بها، لم أكن أنتظر المعجزة فالمعجزة تتوقف على مدى إيماننا بالمستحيل.
أجفلني رنين الهاتف قبل محاولة الصمود لقراءة اسم المتصل، تلحف السواد مدى بصري قبل أن أبدأ في همس اسمه في سري، يونان، ارتبكت ابتسامتي قبل أن أجيب، وتحركت عند النافذة قبل أن أدهس الزر الأخضر ليصلني به، أجبته بنصف تكاسل:
- -يونان-.

لا أدري لماذا تعثرت بك، وكيف ملأتني بكل فراغك وطيشك وجنونك، كيف لفت انتباهي بأحلامك الوجلة، ارتعش صوته وهو يخبرني:

- -إن لم يكن عندكِ مانع نلتقي اليوم-.

أشعر بمدى التردد وهو يعرض الأمر عليّ، أسدلتُ ضفيرتي وأنا أفكر، الحقيقة أنني لم أفكر بل كان الجواب جاهزًا لكنني لم أتحمل فكرة أن أجيب بتلقائية، قلت له:

- -معذرة يونان، لكن لدي الكثير من العمل اليوم-.

- -ما شاء الله على النشاط -. قالها متهكمًا.

ابتسمتُ وأنا أجتهد بأن أخفي صوت ضحكتي، بعدها عرض الأمر على مجددًا، وأخيرًا استسلمت لرغبته، لم أفكر وقتها أنه رجل متزوج ويعول طفلة لا ذنب لها في كل ما يحدث، تركت رسالة مسجلة للمكتب بأنني قد أتأخر اليوم وغيرت بوصلتي إلى حيث ينتظر يونان.

*****

كان اليوم أزرقًا إلا من بعض الغيوم التي توسدت صدر الفضاء، نزلت من سيارة الأجرة إلى حيث أخبرني يونان وتقدمت باتجاهه.

الخطوة الأولى من رؤيته، كنت أرتدي زيي العمل، لقد أحببت أن يكون اللقاء رسميًا، حين اختار مكانًا يطل على البحر تأكد لي أنه ذاخر بالأسرار التي يود أن يفصحها، فجميعنا أمام البحر نروض الذاكرة ونفك أزرارنا المكنونة.

الخطوة الثاني، والثالثة، أطلت النظر حيث يقعد، للمرة الثانية أراه يدخن، ربما هي عادة لم أكتشفها إلا مؤخرًا، برغم لسعة البرد التي تمر بالمكان كان يرتدي قميصًا فيروزي مفتوح إلى حيث يستقر قلبه مرفوعة أكمامه إلى

نصف ساعديه، وحرص على وضع نظارته الشمسية في أدغال شعيراته.
الخطوة الرابعة، كانت كفيلة بأن أستمر إلى حيث يستكين، كان الدافع للقدوم بالنسبة لي هو رؤية يونان، ومعرفة ما ينوي، عندما وصلت أطفأ سيجاره وبدا على وجهه قسمات الابتسامة، وقف من فوره ونظر نحوي، نظر كثيرًا حتى نسينا البحر الذي يأسر جلستنا، مد يده مصافحًا يدي، وبعدها تقدم فاسحًا للكرسي مجالًا لجلوسي كما يفعل الأمراء مع الأميرات، بقي وقتها بلا كلام حتى بدأت أنا الحديث:

- -مكان رائع، هل تجلس هنا كثيرًا؟-

تلفت كمن يتأمل المكان لمرته الأولى، كأنه اكتشف للتو أنه رائع، أضاف:

- -كلما احتجت أن أنفث عن حزني، وأنتِ، هل سبق وجلستِ أمام البحر؟-

- -كيف أكون في بيروت ولم أجالس البحر!-

- -بمفردك؟-

- -لا، عادة يكون معي حزني-.

رفع عينيه نحوي وهو يقول بلسان مجهد:

- -رغم الموت الذي يصرخ في كل موجة آتي إلى هنا لأجدد عهدي مع الحياة-.

- -وأنا لأتصالح مع الموت-.

حدق في البحر كثيرًا، قبل يسترسل:

- -أتعرفين ما هي أغرب قصة سمعتها عن البحر؟-

- -حدثت معك؟-

قال بنبرة متهكمة:

- -لا، بل حدثت مع زوجة والدي؟-

- -ما هي؟-
- -أخبرتنا ذات مساء أن عمها عندما توفي ألقاه جدها في هذا البحر-.
أومأت برأسي مرات عديدة ساهمة في الحكاية التي تذكرني بأخي جدي ثم صمتَ حين أحس أنني شاردة عن كل ما يقول، نادى بعدها:
- -صبا، هل أزعجتكِ القصة-.
- -لا أبدًا-.
أشار للنادل وأنا أعيد في ذاكرتي الحياة التي قصتها أمي لي، أحاول الربط بين ما قال يونان وبما أخبرني به والد منال أن أمي لا تزال على قيد الحياة، خمسة عشر عام وأنا أعيش يتمًا مزيفًا، خمسة عشر عام وأنا أنزف على أمٍ تركتني في وقتٍ كنت في أمسّ الحاجة لها، عندما فكرت في الانتحار كنت قد قررت ألا أراها مرة أخرى، لا أريد أن أراها بعد كل هذه السنين والجمود، مؤكد أنها افتعلت كل هذه المدة بمحض إرادتها، ولم ألق باللوم على الدكتور محمد حين أخفى عني الخبر، فحين يستعمل الأقربون حياتك بشكل خاطئ لن تبالي بما يفعله الغرباء.
ذكريات مختلفة تتآمر على واقعنا، لم أصدق أنها حدثت لهول وقعها، وأخرى تتواطأ مع آلامنا، ها هو يونان عاش على أمل اللقاء بأمه المتوفاة وها أنا عشت مؤمنة أن أمي ماتت وهي لا تزال على قيد الحياة، يا للسخرية المقيتة التي تدفعنا أن نستمر، نستمر وحسب.
مرغمة، نظرت ليونان وأنا أقول له:
- -أريد أن أعود للبيت-.

# -٤-

عتمة الأسرار

يحب الإنسان أن تكون له أسرار، ولا يحب أن يكون ضعيفًا.
بسرعة قياسية انسجمت مع يونان، تكررت لقائتنا التي تشي برتق كل شروخنا القديمة، وبدأت أحس بضعفي أمامه، تمكن عمي خلال هذه الفترة ملاحظة ما يجري بيني وبين يونان، لم أؤكد له أي شيء حتى لا يشكل الأمر بلبلة أو تشويش في فترة كنت أحوج ما أكون للتوازن، وبدأت أشعر أن يونان بدأ يشك في شعوري نحوه، فآثار اللهفة معلقة في عمق عيني، وملتصقة في لغتي.
جلبتني الأفكار التي خمدت أن أتصل بمنال التي قاطعتها منذ آخر مرة، كونت رقمها وأنا أنتظر صوتها، أحتاجها فعلًا كصديقة أن أخبرها بكل ما يدور معي، تنصحني، هل أكون على الطريق المغلوط دون أن أنتبه لذلك؟، عند الرنة الثالثة جاء صوتها بلهفة اشتقتها منها:
- -صبا!-
- -أختي منال، اشتقتك يا نذلة!-
بتلقائية فرت العبرات من عيني، كل مرة أتحدث فيها لمنال أتذكر الطفولة التي تقاسمناها معًا، لهذا اكتفيت بها صديقة في كل هذه السنوات التي مرت وغدرت بنا.
تبادلنا التحية من ثم قالت ساخطة على ما حدث في آخر مرة من والدها:

- -كل هذا الزخم الذي حدث لم أكن أعلم عنه شيء، والله يا صبا لم أعرف إلا يومها، حين قررت أن أخبركِ كنت منهارة ولا أعرف كيف أخبركِ بالأمر، حين أخبرني أبي قمت وأنا مترددة من أن أخبرك، كنت أعرف أنه سر ثقيل-.
رغم تعبي الشديد الذي حدث جراء الخبر لم أشأ أن أعلمها أنني حاولت الانتحار بسببه حتى لا تحمل والدها عبء، أو تشعر بالذنب من ناحيتي، لقد فرض القدر علينا الظروف ليرى كم بوسعنا أن نتحمل ونستمر، مكثت منال دقائق وهي تبرر لي ما حدث قاطعتها:
- -لا أريد أن أصدر حكمًا مسبقًا بشأن ما قامت به أمي، فأنا لا أعلم أين هي الآن، ولا في أي دولة تعيش، ولماذا قامت بهذا التصرف، وهل كان بإرادتها أم أن الظروف أرغمتها على الرحيل، لقد أدركت من نفسي مدى الرضوخ الذي حلّ بنا، ولم أعد أنتظر أن تدهشني الحياة بشيء، لقد حُرمت منها، أنت نفسك تعرفين ذات الشعور، تعرفين معنى أن تتربى فتاة بغير أم، بغير أن توجهها، بغير أن تقابل كل سر بكتمان، بغير أن تسمح لي بأشياء وأن تحظرني وتحذرني من أخرى، بغير أن تختار أزيائي وتحرك ذوقي وتعلمني الطهي وتوجهني، بغير أن أشكو لها، بغير أن أقول لها: -لقد ضاقت فساتيني، بغير أن أقول لها أحبك يا أمي لمرة أخيرة-.
التفت خلفي فوجدت عمي كان يقف على أعتاب الغرفة، لا أدري أكان صوتي مرتفعًا إلى حدود سمعه، ولا أعرف إن كان قد اقتنص ما حاولت أن أخفيه عنه في الفترة السابقة، فأنا على علم من أنه يعاني من حساسية مفرطة من أفعال السيدات بعد حادثة الطلاق التي مر بها، أغلقت سماعة الهاتف مع منال وأنا أعدها أن يتكرر الاتصال فيما بيننا، لأنني أريد أن أعرف تفاصيلًا أكثر حول معرفة الدكتور بأمر أمي، وكيف أدرك الأمر، وإلي

أي حد كان يعلم، ومنذ متى؟
ولج عمي إلى الغرفة وتقدم حيث كنت أقعد، تحسس الكرسي بلمسة خفيفة وهو يستكين عليه، عادة لا يجلس عمي إلا إذا كان الحديث طويلًا، اختصر الكثير من المقدمات حين قال:
- -تعرفين يا صبا أن الانجراف نحو الهاوية أبشع من السقوط-.
لم أفهم ما يريد أن يرمي إليه، تابع مستطردًا وهو ينظر صوبي مباشرة:
- -تعلمين أنني أؤمن بنباهتك، والتي بفضلها تركتك تنجرفين إلى سوق العمل، وتسرحين بكل طاقتك وشبابك للإتيان بحقوق الآخرين ومناصرة المتظلمين، كذلك أحترم مشاعرك وعواطفك، وأعلم أنكِ لستِ بصغيرة لأوجهكِ نحو الصواب، لكنني عاهدت نفسي عندما توفي والديكِ أن أرعاكِ وأن أتفانى في ذلك، لكنكِ الآن في طور عيونكِ فيه معصوبة، تحفرين خندقًا في جوفك، ولا تشعرين برهبة ما تقومين به، أعلم أنكِ تتساءلين الآن ما سبب كلامي هذا، ولمَ أقوله لكِ الآن، الأمر أنني لن أسمح لكِ بالسقوط أبدًا-.
قاطعته وقتها:
- -ابنتك لن تسقط-.
تريث قليلًا قبل أن يقول:
- -يونان وقع وثيقة إيجار البيت اليوم-.
تفاجأت للتو مما قاله عمي، زم شفتيه ثم تابع بحزم:
- -لكنه وقع الوثيقة باسم زوجته-.
انفجرت الدماء في وجهي، وتكبل لساني بين فكي، وهو يكمل:
- -صبا، تعلمين أنه رجل متزوج مقرون بأسرة، قائمة أحلامه العريضة لا

تشملك-.
عندما لاحظ عمي لمعة الحزن تتسربل في ملامحي قام من مقعده واقترب نحوي مبتسمًا ثم قال:
- -يجب أن تمتنعي من مقابلته، أن لا آمركِ يا صبا، أنا أريد أن أحافظ عليكِ وسأفعل ذلك حتى أخر شهيق تمتلئ به رئتي-.
أسندت رأسي على كتفه ودموع الحسرة والقلق تنسدل من عدستي المنكسرة، شعرت أن الحقيقة التي تجلدنا في لحظة حزن أفضل من الوهم الذي نتكئ عليه، لكن الحقائق نخرتني ومضت إلى نخاعي وذاكرتي واحدة تلو أخرى، استقام عمي من جواري وهو يربت على ظهري بحنو ثم قال قبيل خروجه:
- -أنتِ أمانتي يا صبا حتى يأخذ الله أمانته مني-.
لا أعرف لماذا يذكر عمي الموت كثيرًا، أخشى أن يصيبه مكروه حينها سأكون بلا مأوى، بلا ظهر، بلا هوية.

*****

بعد شهر من اللا مبالاة التي أغتنيها في قلبي افتتح يونان معرضه الصغير، كان قد حاول الاتصال بي دون أن أستجيب خلال الثلاثين يوم السالفين، لاحقني في مكتبي، طرح جنونه كطفل يريد أن يلهو بشكل هستيري، لم يستطع أن ينتصر في أزمته الوجودية، واتهمني في عدة رسائل نصية وصلت لهاتفي أنني سببًا عملاقًا في تعبه الشديد، وأنا أقنع نفسي أنه لا يوجد حزن مطلق، وأن التصرفات التي يقوم بها يونان بفعل العادة لا أكثر، حاولت خلال تلك المدة أن أتفادى لقائه بشتى الطرق، وأن أصنع قائمة من المبررات الخفية التي تحرضني على هذا الجفاء الذي أظهره ناحيته، أعترف أنني

كنت أصبو لرجل يدعى يونان، وأنني أظهر استقوائي وأخفي ورائه قلبي الهش الذي سيسقط لو أنني سمعت منه ولو صدفة اسمي، لو أنه يقول مثلًا -لا تتركيني يا صبا- لكدحت عهدي مع عمي من أجله، لهذا تفانيت في ألا أظهر أمامه، لا أريد أن أرى عينيه الوادعتين بكل ما تحمله من سمرة وحزن، فعندما أخبرني عمي أن وثيقة الإيجار قد صكها باسم زوجته بنى ذلك الأمر مناعة قاسية ناحيته، صحيح أنني تفاديت الحديث عن زوجته في كل اللقاءات التي مرت بيننا لأنني تعمدت أن أعفيه من فوضوية الإجابة، كلانا كان ينشد الحزن على أوتار الآخر، ويرمز عن الأسرار التي لم يحن إطلاقها بصمت.

قابلته اليوم عند مدخل البيت، ربما دبر الأمر من ناحيته، قال قبل أن أبدأ الحديث -ألن تزوري المعرض-، التفتُ نحوه وأنا أحاول أن أغض طرف قلبي، جذبني من يدي بتهور إلى داخل معرضه، تحركت بين العديد من اللوحات التي تفطنت من خلالها كم هو مبدع، واستقر أمام واحدة مغطاة بشال أبيض يدلف حتى أرضية المكان، وقف ورائها حتى اختفى نصفه السفلي، حاولت جادة ألا أنتبه لما يفعل، سأتركه كما قال عمي وشأنه، أحس أنني غير مندهشة مما يحدث، قال بحنق:

- -ما هو سبب ذلك الجفاء يا صبا؟-

جاوبته بحروف حادة:

- -هكذا يجب أنا نعامل الغرباء-.

لا يمكنني أنا أرافق رجل متزوج، كما لا يمكنني أن أعلق أحلامي على حائط مائل، أفضل أن أبقى وحيدة على أن تجمعني الأوهام في خضم العدم، تلقى يونان جوابي الذي حرك فيه كل فصول الشجن، رفع عينيه مواسيًا

حزنه هو يقول:

- -غرباء!-

عاودتني تلك الكلمة ذاتها في صوته، نعم يجب أن تقتنع بذلك يا يونان، نحن غريبان لا تجمعنا سوى فراشات المشاعر، تحاشيت النظر وأنا أقول له:

- -يونان، أنت رجل لديك عائلة ومتزوج، ولا يمكنني أن أكون سببًا في هدمها أبدًا-.

توجست في عينيه سخط الحزن، وبدا مذهولًا مما قلته للتو، رفع الستار الذي كان يخفي اللوحة وأنا في دوامة رهبة مما أرى، لقد سمّرتني المفاجأة التي تحرشت في أعماقي، لم يقاطع تأملي يونان بل تركني أنعطف دون أن تكبحني كلماتنا المحفوظة، تلك اللوحة التي كانت بيننا كانت أنا، كيف أرد عليه الآن، مرة أخرى يحوم بداخلي الحب، لم تردعني تلك اللحظة من أن أركض إليه ويكبسني في حضنه، ساورتني الفكرة التي أطفأتها وأنا أطعم مشاعري الصبر، نزعة الحب التي في قلبي تدفعني بأن أقول له -أحبك- لكن كبريائي يمنعني، قضينا دقيقة وكلانا يقف وسط تخوم أفكاره وأحلامه، قتلت لحظة الصمت وأنا أقول له:

- -لا أريد أن أكون محطة في حياتك-.

- -ستكونين حياتي-.

كانت حاجتي أن أغمسه في حضني في أوجها، لكنني تريثت وبداخلي سؤال كبير، هل سيملّ يونان مني كما فعل مع الأخريات، لا أريد أن أزاوله كما فعلت شهرزاد، أعتقد جازمة أنني لست أول من يرسمها يونان، لكنني أريد أن أكون الأخيرة، أريد ألا يرسم بعدي أحد.

حملت اللوحة معي وخرجت أحث الخطى نحو ذاكرتي التي بدأت للتو،

كأن تلك اللوحة اخترقت حياتي كأنني الموناليزا التي تستحق متحفًا من الوفاء يدثرني فيه، كان يونان سعيدًا لدرجة لا يمكن وصفها، كأنه اعترف أمام ألوانه ولوحاته أنه نجح في اقتناص شيء ما يضيء يدعى قلب، فكما قرأت لأحدهم أن الحب هو أن يتحول القلب من مضخة إلى قنديل.

قبيل صعودي للدرج هرول يونان ناحيتي ودعاني لحضور حفل افتتاح معرضه الذي سيقام بعد أسبوع من اليوم، وعدته أن أحضر، ووعدني أن تكون لوحتي سيدة اللوحات في هذا اليوم.

ليس من العيب أن تكون مجنونًا طالما تحب.

## -٥-

أنثى حللها الغياب

حقَّ لنا أن نغيب، لطالما كان الغياب موت مؤجل.
كانت تلك المرة الأولى التي أكتب ليونان بنية الغياب، كتبت له رسالة ووضعتها في مظروف يحمل اسمه:
-هذه الشاعرية المصروعة في قعرك لولاها ما كنت لأكتب الآن، تذكرتني وأنا طفلة أتهور بكل جنوني وتمردي بين الموت، لم يتسنى لي أن أترك ذاكرتي تنضج في طنجرة مصقولة بهالة من الألم، أتذكر ما قاله فيكتور هوغو -الإنسان يتعلق بصورة الوطن، كما يتعلق بوجه أمه-، وبعدها أفكر، لقد مرت سنون مترعة بالهموم وتعلق في ذهني أشياء لا حصر لها، كان أهمها يد أمي اللاهوتية التي أفتقدها جدًا، مؤخرًا أصبح يجمعني بمنال تواصل كبير فلقد أخبرتني في رسالتها الأخيرة أنها ستتزوج من ابن عمها بعدما عاد من هوة الغربة التي أبعدته كثيرًا، نسيت أن أسألك، هل لديك ما يكفي من الذاكرة لتجلس بجانب البحر وتمضي في رحلة فريدة وأنت ترسمني، اشتقت أن أتشعب على صدر اللوحة وأنت تفكر في تغير كل ظروف الورقة لتشبهني، كل شيء أصبح يهتز وثارت الشكوك حول أنني فقدت درجة من بصري وأن العدسات من اليوم ستحيل بينك وبين عيني.
أصحيح أننا نسعى بأن نملأ كل شيء، وهذا ما يبرر التصرفات الخارقة التي نقوم بها.

ألم تكن كل تلك الكلمات كفيلة أن تصنعنا تحت قدر بسماء أقل صلابة من التي فوقنا الآن، نعم، لقد آمنت بعدك أنه ثمة أحلام مؤذية حين تتحقق وأن الأمر يتوقف على طريقة تحقيقها، كان على أحدنا أن يقف أمام الآخر ليضله قبل الوصول إلى النهاية، لكننا والله أعلم أخطأنا لأننا كنا لا نعرف سوى طريقة واحدة تأتي عليها المشانق-.

لقد حرستها بقلبي، آه لو يعرف أنها خرجت بعد المرة الثالثة التي أفسدتها دموعي وأحرقتها ذكرياتي، آه لو يشعر بي.

*****

كانت الليالي تقر أنني عاشقة، انتظرت الصباح الذي يجيء معه صوته وصورته وحماقتي التي تنطلي على سحنة ذاكرتي أمامه، ألقيت نظرة وأنا أحاول أن أتخيل اليوم الذي سيكون فيه الحفل وكيف سيضع اللوحة التي رسمني فيها لا محالة سيكون الأمر مفاجأة للجميع، لا أخفي نفسي سرًا أنني أنتظر ردة الفعل التي ستظهر وقتها، تلح في رأسي فكرة ارتداء فستان خاص لتلك المناسبة، كنت أنا آخذ المناسبة مأخذ أخر، فأنا أحب المقامرة بالحياة دفعة واحدة، أعترف أنني خسرت الكثير، لكنني تعلمت أن أكون لاعبة ترد اعتبار نفسها متى وجدت الحياة تسلب مني شيء.

اتصل بي يونان قبيل الحفل بساعات، اتصل المجنون يشاورني في لون ربطة عنقه، سخرت من سؤاله وأنا أقول له:

- -كأنني عروسك في يوم زفافك يا يونان بيك-.

أخذ سخريتي على محمل الجد، وأضاف وهو على أهبة الحذر:

- -تتزوجيني يا صبا؟-

يا الله، لقد داهمني بخفة، لا أعرف ما أشعر به الآن، أخرسني طلبه، أضاف

كمن يبوح بسر:

- -صبا!-

تملكت قوتي وأنا أقول له:

- -نعم-.

- -أحبك-.

قصص الحب الحقيقية تأتي دائمًا بشكل مفاجئ.

تشبثت في سؤاله الأخير كمان يراود الحياة عن نفسه، لقد انتصب الضوء أمامي فجأة، وظهرت صورة الفارس الذي يركع بجانب جواده، يتراءى لي يونان بأجمل الصور وأبدعها، كنت سعيدة لدرجة لا حد لها، كان من الصعب أن أختلي بالجواب عبر الهاتف لذا قلت له:

- -يونان، تريد أن تقنعني أنك أحببتني لمجرد أنك أنقذت حياتي؟-

تنهد قبل أن يسترسل:

- -لقد دخلتِ إلى أعماقي دون معركة، وانتصرتِ، لقد كنتِ فاتحة حقيقية يا صباي-.

- -الله! هذا الكلام لي-.

- -عليكِ أن تختاري بين أن أحبك وبين أن أعشقك-.

- -ماذا لو كان في مخيلتي خيار ثالث؟-

- -ما هو ذا؟-

- -أن أحبك وأحبسك في قلبي-.

جثمت اللحظة بيننا، قال بنبرة ماكرة:

- -هيا أجهزي قبل أن يبدأ الحفل دوننا!-

عبرت عن احتجاجي وأنا أقول له:

- -هل تستطيع أن تفعلها دوني؟-
قابلني ببيت شعري لجاسم الصحيح يقول فيه:
-كل النساء أحاديث بلا سندٍ
وأنت أنت حديثٌ لابن عباسِ-.
بعد أن حط يونان قلبه فوق قلبي أصبحت في غمرة السعادة الأبدية، وابتسمت كما يليق بعاشقة ناجحة، ركلت وسادتي بعدما قسوت عليها بين أحضاني، وفتحت خزانة ملابسي وأنا أستعد لرؤية يونان.

*****

اكتشف الآن صبا أخرى، هذا لأن الحب يغيرنا، صبا الجديدة التي عبرت لمدن الحب وتوقفت في ساحة الأمل وهي تنظر للأعلى وتمجد مشاعرها لا أن تجمدها.
الغروب، كان فتنة حقيقية أن يحمر الأفق ويختلي بنا الليل، نزلت من على الدرج متأهبة لقاء يونان، كان قد سبقني عمي إلى الأسفل وحمل معه هدية يقول اشتراها له من أجل الاحتفال وكذلك اللوحة التي رسمها لي يونان، شدني منظر اللوحات بداية من التي تطل على واجهة البيت كانت مصفوفة بعناية وذوق، وكذا الموسيقي التي تندفع بهدوئها في هوة القلب، تقدمت إلى الحضور أفتش عنه بكل تريث ورزانة، كانت حدقتي عيني تتحرك حتى اصطدامي الأول بالحياة، ألقيت بتعبي في عينيه حين جاء يصافحني أمام الجميع، أكاد أسمع زغاريد قلبي حين لامسني هذه المرة، كنت بصدد أن أنسى كل الحضور ويتضامن الجنون معي وأنا أضعه في حضني، صعدت زفرة من عمق تيهي وأنا أنظر في عينيه:
- -يونان!-

- -انتظري سأريكِ شيئًا-.
توسطت اللوحة ردهة المعرض وهي تحمل عنوان -صباي-، كدت أسقط من هول جنونه، كانت هذه أول مرة يبهرني شيء بحجم ما فعل.

*****

بعد دقائق حضر الدكتور أدهم هو وزوجته وتقدما نحونا يصافحني ويعرفني عليها، كانت سيدة أربعينية ترتدي مانطو يصل حتى نصف ساقها وتحتشم بشكل اراه مبالغًا بعض الشيء، بدأت تحدق فيّ وأنا أتابع في اهتمام وفضول كبيرين، كان واضحًا مدى تغير تعبيرات وجهها حين قدمني يونان لها قائلًا:
- -المشاكسة صبا!-
نظرت إلى عيني وهي تقول:
- -اسمك صبا!-
نصب يونان نفسه محاميًا وهو يقول مازحًا:
- -لا بل صباي أنا-.
تحسست بيدها اليسرى ندبة أسفل حاجبها وهي ترمش لي، كأنها تخبر شيء في بهذه الإشارة، أعادني المشهد إلى الطفلة التي كنتها حين تسللت إلى البيت وهي تشاهد أمها مصابة بجرح أسفل حاجبها الأيسر، كان يجب أن أسألها من أنت، هل أنت السيدة التي هجرت زوجها وبنتها منتهزة سكرات الحرب، لم أحب أن أخرب حفل يونان، كان من واجبي الحرص على إتمام الحفل لا أن أجعل مني محط أنظار بين الجميع، افتعلت ابتسامة وأنا أرحب بها كما لو أن شيء لم يحدث.
إحساس مبهم باليتم يراودني، تركت المعرض بكل أشباحه وخرجت في باحة

البيت أتنهد بقوة، جلست بخشوع على إحدى الدرجات وإحساس الحزن يتسرب إلى داخلي، أدركت في قرارة نفسي أن أمر ما سيحدث الآن لا أفهمه، نهضت مثقلة كأنما حجر كبير يغفو فوق صدري، التفت خلفي فوجدت السيدة التي جاءت مع الدكتور واقفة تراقبني على بعد أمتار قليلة من موضع جلوسي، خرج صوتها باكيًا:

- -صبا، أنت صبا أيمن صحيح!-

في البدء سرت في جسدي قشعريرة وأنا أصرح لها:

- -نعم أنا صبا أيمن-.

كأنها قضت وقتًا في تركيب وتفكيك أفكارها قبل أن تقول:

- -صبا، ألم تتعرفي عليّ؟-

- -لا، عفوًا من أنت!-

أرهقتها بهذا السؤال، كأنما طعنة ما اجترت أحشاءها فانحنت وهي تبكي:

- -أنا أمك يا صبا-.

أجبتها بكل برود:

- -أمي التي أعرفها ماتت في الحرب-.

ليس من الفضيلة أن تتجرد من ذكرياتك، هذا ما حاولت أن أصنعه وقتها، وربما ما حاولت أن أقنع به نفسي، تقدم من ورائها عمي وهو يقول:

- -هذه أمك يا صبا-.

كان الحد الفاصل بين أن أصدق وبين أن أكذب هو جواب العم أحمد الذي باغتني، انجذبتْ نحوي وهي تقول:

- -والله أنا أمك-.

كانت الصور تتأرجح وتتضارب في رأسي، لم أجد ملاذًا فيما قيل، كأنني لا

زلت لا أصدق الفكرة النقيض، أذكر بوضوح ذلك اليوم الذي رجعنا فيه إلى البيت ولم تكن موجودة، انطلقت كمجنونة في كل الغرف وأنا أبحث عنها، حتى جاء أبي بالخبر اليقين أنها كانت تختبئ في بيت إحدى الجارات أثناء الغارة التي تستهدف الحي والذي قصف يومها، ولم يستطع أحد انتشال الجثث من تحت الأنقاض.

اندفعت نحوي وعانقتني بحرارة، وأنا ساهمة من هول ما يحدث، أيعقل أن تكون أمي، أمي التي لم يسبق لها أن غادرتني ليوم واحد غابت لخمسة عشر عام، شعرت أنني أفقد حرارتي وأنا أنتظر أن أستوعب ما يجري من حولي، بعد الدقيقة الأولى من التيه هززت رأسي وأنا أسأله:

- -إن كنتِ حقا كما تدعين أنكِ أمي، لماذا غبتِ كل هذه السنين؟-

أحتاج مبررًا حقيقيًا للذنب الذي طالني كل هذه الفترة، سحبتني من ذراعي وهي تحاول أن تتكلم بعيدًا عن الجميع:

- -سأخبركِ بكل شيء يا صبا-.

-في الزيارة الأولى لك لبيت منال بدت الأفكار في رأسي تتمحور بشكل خاص حين شاهدت خلفكِ منال تصلي وأنت تجتهدين في رسم ملامح الألم أمامي حتى لا أكشف ما كنتِ تقومين به أمامها، أخبرت يومها أباكِ بالأمر والذي لم يعطِ الأمر أهمية، صممت أن أفسر الأمر بنفسي، استغللت غياب أباكِ عن البيت في التردد على بيت أم منال والتي أخبرتها أننا لسنا مسلمين بل ديننا ينشق عن الإسلام، دأبت على تعليمي تقاليد الدين وأصوله، حقيقة أعجبت كثيرًا منه إذ يحمل فضائل لا توجد في دين سواه، أقنعت نفسي بالإسلام حتى اليوم الذي رحت فيه إليها وفتحت لي الباب وأنا أستقبلها بكلمات محببة إلى قلبي -أشهد أنه لا إله إلا الله وأن سيدنا محمد رسول

الله-، احتضنتني ودعتني للداخل وهي تكبر الله، بعدها أخبرتني أنه لا يجب أن أقترب من أبيكِ حتى يدخل هو الآخر في الإسلام، لكنه رفض وانهال فوق رأسي ضربًا حتى فتحت لكمته حاجبي حين فاتحته في الأمر، لم أشأ أن أخبركِ يومها تفاصيل ما حدث، لزمني وقت كبير لأعرف ما ينبغي القيام به، حتى انتهزت نجاتي من القصف الذي ضرب الحي، كان عذابي فكريًا في أن يحدث لكِ مكروه، ذهبت بعد نوبة الموت التي مرت بالمنطقة إلى بيت أم منال وأنا أخفي نصف وجهي من بشال، فتح الدكتور لي وهو يخبرني أن زوجته كانت في بيت الجارة الذي قصف منذ قليل، وقتها توسلت له أن يساعدني فيما أنا مقدمة عليه، غمرني إحساس بأن الله قد سخر لي الدكتور من أجل الاستمرار على طاعته، أخبرني أنه سيلحق بكم وسأكون بمحاذاتك في كل الأماكن التي تصلون إليها، كنت معكِ في السرداب عندما ربتُّ على ظهرك ولم تنتبهِ لي، وكنت في الفندق الذي كاد والدكِ أن يراني وأنا أتلقى أخبارك من الدكتور، وتحركت في سيارة خلفك أقلتني حتى -منفذ إبراهيم الخليل-، لكنها تعطلت السيارة قبيل الوصول ورفض السائق على إكمال المسير مما جعلني أتأخر عن موعد وصولكم بزمن كاف ليمر الجميع، ستر الله أن سيارة مارة أخذتني في طريقها للمعبر، كنت قد اتفقت مع الدكتور أن أنتظره قرب السياج الشائك ليطمئنني على الجميع، أخبرني أنكم بخير وأعطاني عنوان أصل إليه-.

أحسست بانجراف مشاعرها وهي تسرد تفاصيل ما حدث، لملمت دموعها وهي تستطرد:

- -فور وصولكم لبيروت انقطع الاتصال بيني وبين الدكتور لأسباب لم أفهمها، ربما حدث الأمر كله دون سيطرة منا، بحثت عنكِ كثيرًا، ودعوت

الله أن ألتقي بكِ قبل أن أموت، تحققت من وجودكِ في كل الأماكن ولكن بلا فائدة، انتظرتك كثيرًا، كنت أرسم على قطن كل غيمة رسالة لكِ في هيئة دعوة، لقد تحسر قلبي، فلم يبقَ منكِ معي سوى أطلال طفلة بالكاد كبرت ونسيت أمها-.

قاطعتها بعينين طاعنتين بالبكاء:

- -أنا لم أنساكِ يومًا، كنتِ تجوبين خاطري في كل سجدة أقبل بها وجه الأرض، لقد انكسرت من بعدكِ، ولم يجبرني شيء، كل ما كنت أعرفه أن أمي متوفاة لذا كان الأجدر بي أن أدعو لكِ فقط، أحاول أن ألتئم بالنصائح التي كنتِ تسديها في طفولتي، أتخيلكِ، أحلم بكِ، ما أن يبدأ العام في المرور كنت أحتاجكِ أكثر، كبرت وأنا أبحث عن أم قد طواها الثرى، لم أكن أفهم كيف أفتعلك، أجدك، ألمسك، أقبلك، أعانقك.

ركضت في أحضانها وركعت أقبل قدميها، وأنا أقول لها:

- -أريدك أن تعديني ألا تتركيني أبدًا-.

سيساعدني هذا الوعد أن أمسح كل الأعوام التي مرت بيننا، رفعتني إلى قلبها وهي تغلفني بذراعيها:

- -أعدك يا ابنتي-.

قد تصلح الوعود ما أفسدته الحياة.

لقد حللني الغياب وتفلسفت فيّ الأعوام، وحار كل شيء في قلبي، ولم أدرِ من أين جئت بكل هذا التجلد كل هذه الأعوام، لقد مرت خمسة عشر عام حاولت أن أكون بقصارى جهدي صبا التي لا تأكلها الحياة، فلم يحلم أحد بحياته كما فعلت، لقد رصعت أحلامي بالأمنيات الكبيرة، فيما أصر يونان أن يشاركني كل أحلامي القادمة، الآن أشعر أن الدنيا تخلع قناعها

القديم وتنفث نفخة الحياة في قلبي لأخلق من جديد، أتحسسني وأنا أزيح كل حرائق الذاكرة وأكنس غبار الماضي وأعطي قبلة الوداع للذكريات التي استوحشت في قلبي.

تمت

صبا ٢٠١٨

# تمت

# اهداء ثان

لأن الهدايا لا ترد ولا تباع ولا يمكن استبدالها إلي عائلتي الكوكبين والشمس والقمر"عبدالرحمن- محمد - أبي- أمي"

لأنك فتاة مهمة كالتنفس ولا يمكن الاستغناء عنك، ولأنك متاع الدنيا وسحرها، إليك كل ما كان وكل ما سيكون.. "بسمة وجيه"

## للتواصل مع الكاتب

إبراهيم حامد/FB.com

فصلة

للنشر و التوزيع

Fasla Publishing & Distribution


تواصل معنا :

**01067000701**

**E-mail -: Fasla .Pub@Gmail .com**

**Facebook .Com/Fasla .Pub**


---